عزمي النشاشيبي

من القدس إلى لندن

SPC
DA
684.2
.N37
1946
RBK

المطبعة التجارية * القدس

Digitized by Birzeit University Library

304259
107253
Rare
SPC
DA
684.2
.N37
1946
RBK

من القدس إلى لندن

بقلم

عزمي النشاشيبي

مكتبة جامعة بيرزيت
073671
BIRZEIT UNIVERSITY LIBRARY
141173

اغستوس — ديسمبر

١٩٤٦

Digitized by Birzeit University Library

المقدمة

ايها القارئ الكريم !

ان كنت تبحث عن علم او ادب ، فدع هذا الكتيب جانباً وابحث عن غيره . فالكتابة في العلوم والآداب تحتاج الى بحث وتدقيق ، ودرس عميق ، ومراجع ومعاجم . اما هذه الصفحات ، فليس فيها شيء من ذلك ، إذ لم يكن هناك اي عزم على الكتابة ، فالذي ينتقل من عمل الى عمل ، لا يفكر في القيام بعمل اضافي إبان فترة الانتقال . ولكنها الاقدار ، وكان ترجمان هذه الاقدار الصديق صاحب « الدفاع » . تقابلنا قبل السفر بيومين ، فلما علم بخبر الرحلة ، طلب الي ان اكتب ما اشاهده في طريقي واعلق عليه ، فوعدته خيراً ، وكتبت .

وتتناول هذه الصفحات الفترة الواقعة بين اغستوس وديسمبر من سنة ١٩٤٦ ، ويبحث معظمها عن الحالة والحياة في لندن خاصة ، وفي انكلترا بصورة عامة . وهي فترة عصيبة دقيقة ، ولكنها عابرة ، يمكننا ان نعتبرها صفحة في دور التطور والانتقال من حالة الحرب التي عرفها الناس ، الى حالة السلم التي قد يعرفها بعضهم عاجلاً ام آجلا .

ومما يجدر ذكره هنا ، ان كثيراً من الاخبار والمعلومات التي وصلت وتصل الينا عن الحالة هناك مغلوط من اساسه ، بينما البعض مبالغ فيه ، وهناك اشياء لا صحة لها البتة . وقد يتلمس القارئ بعض التناقض والمفارقات بين اجزاء الكتاب ، وهذا امر طبيعي لا مفر منه في فترات الانتقال من حال الى حال ، وذلك حتى يتم الانسجام التام بين ما كان وما سيكون ، وتستقر الامور على شكلها القطعي الاخير .

Digitized by Birzeit University Library

ثم ان هذه الصفحات لا تتناول موضوعاً واحداً ، بل تحتوي على مذكرات مغربلة لحوادث وحالات شاهدها الكاتب بعينه ولمسها بيده ، فسجلها على حقيقتها كما رآها وفهمها . وقد كتب اكثرها على ارصفة المحطات والمرافىء ، وفي القطارات وعلى سطح البواخر ، وفي المقاهي والمطاعم والمنتزهات العامة ؛ وفي كل بقعة فرضت الكتابة نفسها دون اي اعتبار للمكان او الزمان .

وكان القصد من طلب الصديق ، نشرها في « الدفاع » تباعاً طبعاً ، وكان الوعد كذلك . ولكن عندما تجمعت بشكلها النهائي الحالي ، تبين استحالة نشرها بالتقسيط ؛ إذ ظهرت كوحدة متماسكة متسلسلة ، ان اضاع القارئ قسطاً منها ، تعذر عليه متابعة الاقساط التالية ، لكثرة الاشارات الى فصول سابقة ، والاستشهاد ببعض حوادثها .

والغرض من نشر هذا الكتيب الآن ، ذو شقين : الاول تقديم مادة لمجرد القراءة وإملاء اوقات الفراغ في زمن كثرت اوقات الفراغ فيه لدى الكثيرين ، والثاني تقديم صورة صحيحة صادقة عن فترة من الزمن عابرة في تاريخ لندن والانكليز قد لا تستقر طويلاً . وفي هذه الصورة بعض الحقائق والارقام التي قد يستأنس بها ، او ببعضها ، من يهمه الامر . فان ظفرت ، ايها القارئ الكريم ، بأحد هذين الشقين ، تكون هذه الصفحات قد قامت بقسط من واجبها ، والا فامري وامرك لله . وان اكتشف قارئ ما شيئاً غير هذا وذاك ، فله شرف الاكتشاف ، ولي الشرف العظيم ؟

ع . د .

القدس في ١ يناير سنة ١٩٤٧

Digitized by Birzeit University Library

١

في المحطة

قال الاقدمون : « سافر ، ففي الاسفار خمس فوائد . . . » ونقول نحن المتأخرون : سافر ، ففي الاسفار عشرات الفوائد ، لا سيما في هذه الايام القلقة المزعجة ، الملأى بما يثير الاعصاب ويهيج النفوس ، ويحمل الانسان على ان يطفش من دنياه الى اي ملجأ آخر في هذا الكون .

ولا يغربن عن بال احد بان القدس ليست بالبلد الذي يعز كثيراً على المرء فراقه في هذه الايام . فهي على الرغم من تاريخها وجغرافيتها ، لا تتدفق بالمسرات المبهجة . فقد اصبحت مدينة كئيبة ، لا سيما عندما يأتي المساء حيث تغرب الحياة والحركة مع غروب الشمس . فاذا ما جال المرء في شوارع هذا البلد الطيب ، احس بعظمتها الكئيبة وهدوئها الرهيب .

وهكذا ، لم تكد الفرصة تطل برأسها نحو صاحبنا ، حتى غرس اصابعه في شعرها الكث ، واجتذبها نحوه بقوة ، واذا به هو نفسه يطل برأسه من إحدى نوافذ القطار ، ويلوح بيده مودعا شلة الزملاء التي حضرت الى المحطة لتتيقن بنفسها من مغادرته . وشلة الزملاء هذه تتألف من عناصر منسجمة متناسقة ، مخيفة احياناً ، طيبة دائماً :

ولا عيب فيها غير ان «عليها» . خبيث ، لعين ، ناعم ، متآمر

Digitized by Birzeit University Library

وقد حضر « علي » هذا الى رصيف المحطة متأخراً عن « رفاقه » يحمل بين يديه صندوقاً خشبياً مغلقا ، قدمه الى صاحبنا بانحناءة خفيفة وبكل احترام . وتقبل صاحبنا الصندوق شاكراً مرتابا ، واودعه لدى مفتش القطار امانة لحين الطلب ، إذ ليس من الحكمة في شيء أن يضع المرء في مخدعه صندوقاً مغلقاً لا يدري ما فيه ، في عصر المتفجرات الموقتة والمقالب المحكمة .

وفهم صاحبنا من تلميحات هامشية بان الصندوق يحتوي على عناصر من الاغذية الضرورية التي يندر وجودها في بلاد الانكليز . وكان هو قد تنبه الى هذه الحقيقة المهمة ، فقضى العشرين يوماً السابقة لرحيله يتناول الزبدة والبيض والفواكه فطوراً وغذاء وعشاء ، وذلك لاختزان الكمية الكافية من فيتامينات هذه المواد لتقوم بتغذيته طيلة اشهر الرحلة .

وقرع الجرس ، ودوى في ارجاء المحطة صفير حاد ، انطلق على اثره القطار ، ينهب الارض ويطوي البيد ، غير معرج على كثبان طي او تميم .

Digitized by Birzeit University Library

٢

في القطار

من رأي صاحبنا ان السكك الحديدية ، بقطاراتها وقاطراتها ، يجب ان تمنح الى سكان افريقيا وآسيا لكي يستعينوا بها على اختراق الأدغال ، واتقاء شر الوحوش المفترسة . اما ان تعتبر من وسائط النقل الحديثة ، فلا . فهي لا تتوفر فيها ما يجب من ميزات وسائط النقل في يومنا هذا كالنظافة ، والراحة ، والسرعة المطلوبة وغيرها . فالسفر بالقطار قذر ومتعب وبطيء . ومما يزيد الطين بلة ، تلك التنقلات والتغييرات من رصيف الى رصيف ومن قطار الى قطار ، وما يتخلل ذلك من الانتظار الممل على الارصفة وغير الارصفة .

وابشع الاسفار بالقطار واقذرها ، هي السفر بين فلسطين ومصر عبر الصحراء : رحلة طويلة مطردة مملة تستمر طوال الليل واطراف النهار . ناهيك عن مناظر الطبيعة التي تؤذي النظر وترهق أعصاب العين . صحراء قاحلة جرداء ، لا عشب فيها ولا ماء ، ولا حيوان يدب ، ولا طائر في السماء . اما اللون فاسمر اغبر تنقبض منه النفس . وثالثة الاثافي ما يتعرض له المسافر في هذه البقعة من البرد القاتل في الشتاء ، والحر الخانق في الصيف ، ورمال قـــذرة هائجة مائجة تهاجم بلا رحمة ولا شفقة في الموسمين .

ويأبى الحظ العاثر الا ان يستقل صاحبنا هذا القطار في اواسط شهر اغستوس

Digitized by Birzeit University Library

حيث يشتد الحر وتتكاثف الرطوبة في طبقات الهواء . وهو والرطوبة عدوان لدودان . فهو يشكو منذ سنين اشتداداً في حساسية اعصاب الغشاء المخاطي في الانف تكاد الرطوبة تكون لها سماً زعافا .

ولولا ان سقط في سبات عميق من دغدغة القطار ، لقضى صاحبنا ليلة خير منها الجحيم .

Digitized by Birzeit University Library

٣

في بور سعيد

ثالثة مدن القطر المصري وثاني ثغورها . مدينة جميلة تقع على الشاطئ الجنوبي الشرقي من البحر المتوسط . وصلناها صباح اليوم الرابع عشر من شهر اغستوس ، وقد اجمع علماء الميتيورولوجيا بان هذا اليوم هو احر ايام السنة . اما من حيث كثافة الرطوبة فبور سعيد منافس خطر ليافا وحيفا ، ولمصوع وجدة أيضاً فيما يقال .

في مثل هذا اليوم وصلنا الى هذه المدينة وقضينا فيها سحابة النهار بجهاد مستمر غير منقطع . اختلافات ونزاع ومشاكل وملابسات مع الشركات والدوائر والعتالة والحوذية وصانع القهوة وماسح الاحذية .

أعصاب متوترة هائجة ، وجسم اضناه التعب من اهتزازات مزعجة استمرت اربع عشرة ساعة في القطار ، وقد تكدست على هذا الجسم المسكين طبقات الغبار والرمال والدخان . اضف الى ذلك كله حر خانق ورطوبة كثيفة تتسرب الى ما تحت العظام .

في مثل هذا الجو ، وبمثل هذه الحالة ، النفسية منها والجسدية ، تذهب الى شركة البواخر لتتسلم تذكرة السفر . وبعد انتظار نصف ساعة ، في الصف ، يسئالك الموظف المسؤول عن حاجتك . تطلب اليه التذكرة ، فيجيبك بانها لم تصلهم بعد من شركة « كوك » . ولجهلك معالم المدينة ، ولشدة القيظ وضيق الوقت تستأجر حنطوراً ذا حصان واحد ، وتقول للحوذي « كوك » . عندها يدرك الحوذي بانك

Digitized by Birzeit University Library

« سائح » لان كوك يقع على بضعة امتار من الشارع نفسه . فيبتسم ويسير بك الهوينا . وبعد ان يلف بك بعض الشوارع ، يقف . فتقفز وتسئله عن الاجر ، فيجيبك «ريال يا سعادة البيه» ! وتلقي بنظرك عبر الشارع ، فتجد نفسك على بعد بضعة امتار من حيث الابتداء فتستعيذ بالله وتعرض عليه عشرة قروش مع العلم بان المشوار كله لا يساوي ثلاثة قروش حسب سعر السوق . فيثور ويفور ويشخط ويتهيج استعداداً «لخناقة» طويلة المحافظة على حقه المعرض للهضم . وهنا يحدث هياجه في نفسك رد فعلي سلبي وتأخذ في التفكير : إما ان تدفع الريال وانف سعادة البيه راغم ، او ان تحاول افهامه بالمحسوس فتعيقك اجراءات هذه المحاولة عن السفر ، او انك تشكو امرك الى «العسكري» ، فيسدي اليك النصح بلطف قائلا : « ما تدفع له يا بيه الريال وبلاش دوشة دماغ ، ده راجل غلبان وعنده عيال » . وتعمل بالنصيحة الغالية وتدفع الريال للراجل الغلبان بدون دوشة دماغ وترجع الى المرفأ مشياً على قدميك وصدرك في غاية الانشراح .

منذ بضع عشرة سنة وصاحبنا يسافر الى اوروبا عن طريق هذا المرفأ وشقيقه الاكبر بالاسكندرية . ويؤلمه كثيراً بانه لم ير شيئاً من التغيير في هذا الوضع المنغص . فالمسافر ضمن هذين المرفأين تحت رحمة البحري والعتال والحوذي بكل ما في الكلمة من معان مزعجة . تدخل الى بهو المحطات والمرافئ في لوزان او دوفر مثلاً فتجابهك لوحات كبيرة عليها التعريفة بالتفصيل عن العتالة مثلاً للقطع الكبيرة والصغيرة ، فتدفع ما عليك دون اي جدل او نقاش . اما الحمالون هنا فلا بد وان يشتد النقاش بينهم وبين كل مسافر مهما كان جنسه او لغته . وذلك لانهم يطالبون عادة بعشرة اضعاف ما يستحقون ويلحون في الحصول على ما يطلبون بوقاحة وازعاج . ولما كان للناس عقول تبغض الاستهتار ، ونفوس تنفر من الاستخفاف ، تعالت الاصوات واحتدم النزاع .

Digitized by Birzeit University Library

والظاهر ان فرض الاسعار الجنونية على الغرباء ضمن حدود المرافئ ، من الامراض السارية . فقد كان يعتقد ان ذلك من اختصاص الحوذية والحمالة ، واذا بها تتعداهم الى صانعي القهوة وماسحي الاحذية وبائعي الصحف وغيرهم . تكون بانتظار دورك لتفتيش الحوائج ، واذا بمخلوق يقترب منك ويلح عليك بان « تعدل دماغك بفنجان قهوة» فترفض . وعند الدفع يطلب «خمسة صاغ» . فاذا حاولت ، بمنتهى اللطف ، افهامه بان القهوة في « البول نور » بشارع فؤاد الاول بالقاهرة بقرشين ونصف فقط ، هاج وماج واشتد صياحه واخذ يرغي ويزبد بعبارات وحجج لا تمت الى المنطق والتهذيب بقرابة . ولكن تجادل من ؟ وهكذا يفعل بك ماسح الاحذية وبائع الصحف . فاذا سألت الحارس فيما اذا كان هؤلاء الباعة المتجولة يدفعون رسماً اضافياً للدخول الى ساحة المرفأ ، اجابك بالنفي . اذن كيف يصح ان تدفع ثمن جريدة الاهرام قرشاً واحداً في الشارع ، فاذا ما خطوت خطوة واحدة واصبحت داخل حدود ساحة المرفأ ضوعف الثمن ؟ والمصيبة انك لا تجد احداً من اولي الامر والتدبير تشكو اليه امرك لينقذك من هذا الابتزاز العلني تحت سمع القانون وبصره .

وهكذا قضينا ساعات لا نهاية لها ونحن ننتقل من جزء في المرفأ الى آخر . فمن الكرنتينا ، الى الجوازات ، الى المكوس ، حتى ازفت ساعة الابحار . فالقيت الحقائب بالجملة داخل مواعين كبيرة ، وقفز المسافرون الى قوارب بخارية اقلتهم الى الباخرة التي كانت في انتظارهم على بعد بضعة اميال . وقبيل الغروب ابحرت الباخرة بسم الله مجريها وقد وقف المسافرون على ظهرها يتمتعون بمنظر المدينة والبحر وجمال غروب الشمس . وكان منظر اتصال السويس بالبحر رائعاً وقد ارتفع فوق هذه البقعة تمثال ضخم لفرديناند دي لسبس باني القنال مشيراً الى الباخرة بيده اليمنى ان «تفضلي وادخلي» . وقد انسانا جمال هذه المناظر وروعتها متاعب النهار ومنغصاته وهكذا اوينا الى مضاجعنا نستقبل اول ليلة من رحلتنا البحرية بهجة وانشراح .

Digitized by Birzeit University Library

٤

اسكانيا

وهي الباخرة التي تقلنا من شمال شرقي افريقيا الى غربي بريطانيا ، مارة بمالطه وجبل طارق والمحيط الاطلنطي وبحر الشمال . وهي من بواخر شركة « كونارد وايت ستار لاين » وحمولتها ١٤ الف طن . وجميع بواخر هذه الشركة من الدرجة الاولى ، وبينها « الكوين ماري » و « الكوين اليزابث » ، وحمولة هذه الاخيرة ٨٥ الف طن وسرعتها ٢٩ عقدة في الساعة .

كان خط ملاحتها قبل الحرب الاخيرة ما بين الجزيرة البريطانية وكندا . ولما اشتعلت نار الحرب ، وضعت الحكومة يدها على سفن جميع شركات الملاحة البريطانية ، وادخلت عليها تعديلات وتحويلات جمة ، والحقتها بالمجهود الحربي ، وصارت بعد ذلك تعرف بـ « ناقلات جنود جلالته » إذ تبين ان الحرب في مستهلها كانت حرب مواصلات ونقل جنود بسرعة ومهارة من جبهة الى اخرى . وكان من هذه التحويلات ان ازيلت جميع معالم الراحة والرفاهية التي كان يتمتع بها ركاب الدرجة الاولى قبل الحرب ، واصبحت هذه البواخر مرتعاً للاخشيشان والديمقراطية المفروضة . فقد وحدت درجات البواخر الاربع المعروفة واصبحت درجة واحدة ، واطلق عليها اسم « الدرجة الاولى الموحدة » ، وحدد لها سعر واحد لا يتغير هو اربعين جنيهاً للراكب بين بورسعيد وليفربول .

اما النوم ففي عنابر في الطابق الرابع السفلي ، وتقع تحت سطح البحر ، وقد رصفت فيها عشرة اسرة صغيرة ضيقة على طريقة عاب السردين مع ترك شيء من

Digitized by Birzeit University Library

الفراغ في وسط العنبر للتحرك الذي لا بد منه . وكذلك الاكل ففي عنابر كبيرة وعلى موائد طويلة تتسع الواحدة منها الى عشرين مسافراً وعلى نظام المدارس الداخلية من حيث قائمة الاكل واوقات الطعام . والباخرة «جافة» لا تبيع الخمور ولا تبيح استهلاكها . ولكن فيها مقصفاً يباع فيه الشاي والبسكوت والمرطبات البريئة ، كما ان بها مخزناً يمكنك ان تشتري منه كثيراً من الضروريات التي يحتاج اليها المسافر في رحلة طويلة تستغرق بضعة اسابيع كلوازم التدخين والحلاقة والمساحيق وغيرها وكلها باسعار زهيدة جداً لانها لا تخضع لاي نوع من الضرائب .

وفي الباخرة مكتبة ، وحلاق ، ومستشفى ، وصيدلية ، وطبيب جراح ، وبضع ممرضات . اما «الفسيل والكوي» فعليك انت ايها المسافر العزيز ان تقوم بها على الوجه الذي تختاره وترتاح اليه . اما قليلو الحيلة الذين يعجزون عن القيام باي عمل في هذا الوجود ، فقد ظلوا في قذارتهم وظلت عليهم طيلة الرحلة .

غير ان هناك ما يخفف من عبء هذه المتاعب ، لمن يعتبرها كذلك ، ويحمل المسافر على ان يتقبلها بصدر رحب ، بل ويرحب بها . فالشمس الساطعة باشعتها المغذية المطهرة ، وهواء البحر النقي الصافي ، وهدوء البحر الشامل الذي لا يعادله هدوء في العالم ، والتمتع بجميع هذه النعم السماوية ساعات طوال كل يوم طيلة اربعة عشر يوماً متتالية ، بما في ذلك من تهدئة شاملة للنفوس ، واراحة كاملة للاعصاب ، لا سيما لمن كان في حاجة شديدة الى اعصابه ، التمتع بهذه النعم وحده يكفي لتبرير القيام بمثل هذه الرحلة البحرية ، لا على سفينة جافة موحدة ، بل على «مركب خشن» والله . واما الفوائد الصحية المتعددة التي يحصل عليها الانسان من سفر البحر ، فاسئل عنها طبيبك .

وقد اوقفت جميع أسباب التسلية والملاهي كالحفلات الليلية والسينما والموائد الخضراء وبرك السباحة وغيرها لضرورات حربية . والراديو هو المصدر الوحيد

Digitized by Birzeit University Library

للسلوى والاتصال بالعالم الخارجي . ومن المستحدثات في هذا الباب ، التعميم الشامل . فقد نصبت شبكة هائلة من مكبرات الصوت تشمل جميع انحاء الباخرة . فعلى ظهرها ، وفي دهاليزها وصالوناتها وعنابر الاكل والنوم وفي كل بقعة منها قد يكون فيها انسان ، تجد مكبراً للصوت يحمل اليك الاخبار اليومية والتعليقات السياسية والموسيقى . وبواسطة هذا الراديو تتصل ادارة السفينة بالركاب فتعلنهم عن ساعات الاكل وعن الرسائل البرقية الواردة ، وعن حالة الطقس ووصف ما تمر عنه من جزر ومرافئ وعن مواعيد التمرينات الصباحية لكيفية استعمال الاحزمة الواقية في حالة غرق السفينة ، وغير ذلك من الاتصالات والتعليمات .

وجميع هذه الامور والاجراءات هي من مخلفات الحرب ، وقد بدا القوم فعلا بالتفكير في ازالتها وارجاع الامور الى شكلها الطبيعي في حالة السلم وذلك بعد مضي سنة ونصف السنة على انتهاء الحرب . وها هي «الكوين اليزابث» إحدى بواخر هذه الشركة ، قد اعيدت الى ما كانت عليه قبل الحرب مع ادخال تحسينات جمة ومخترعات حديثة . وقد قامت برحلتها « البكر » بشكلها الحديث خلال الاسبوع الثاني من اوكتوبر الى الولايات المتحدة وعلى ظهرها ما ينيف عن الالفي مسافر وكان الاقبال على مشترى التذاكر بشكل لم تعهده الشركة من قبل . وقد اضطرت الى رفض آلاف الطلبات . ولهذا الاقبال أسباب معقولة جداً ، فقد حملت الباخرة افخر المأكولات مما لم يتذوقه سكان الجزيرة منذ ست سنوات ، كما ان عليها انواع البضائع الحرة والشراء دون نقط او كوبونات ، وعلى ظهرها من المشروبات الروحية ما يكفي لتعويمها . وهناك ثلاث فرق موسيقية كاملة تعزف خلال حفلات المساء الراقصة وذلك بالاضافة الى حفلات السينما والسباق والرهان وكلها من الامور التي يتعشقها الشعب الانكليزي وقد حرم من معظمها خلال سني الحرب ولا يزال محروماً من بعضها الى يومنا هذا .

Digitized by Birzeit University Library

مالطه

وبعد ثلاثة ايام من استنشاق متواصل لانقى هواء في العالم وصلنا الى مالطه ليلاً ونحن نيام ، فلما استيقظنا واذا بنا والجزيرة وجهاً لوجه نكاد نلمس باصابعنا اطراف «فاليتا» العاصمة . وتشبه فاليتا مدينة يافا القديمة من البحر مع اختلاف في الوضع ، اذ يرى المسافر يافا على بعد عشرات الاميال من البحر كنتوء بارز ، اما فاليتا فلا يرى لها الانسان أثراً من البحر . وكل ما تراه صخور عالية وتلال جرداء ، فاذا ما اقتربت منها دخلت بك السفينة مضيقاً صغيراً واذا بك امام حوض هائل متسع اشبه شيء بالبحيرة الصغيرة . هذا هو مرفأ فاليتا ويعد من امنع مرافئ العالم وابعدها منالاً لمن اعتدى . وتنتشر مئات السفن من حربية وتجارية وقوارب صيد على اطراف هذا الحوض المستدير . ومن نظرة واحدة عامة تجيلها في اطراف الحوض تدرك حالاً بان الماء واليابسة قد تمتعا بزيارات مفاجئة عديدة من طائرات العدو المغيرة .

اما المدينة نفسها فقديمة جداً من حيث التاريخ والمدنية العصرية . شوارعها ضيقة ملتوية كثيرة الغبار وابنيتها قديمة رثة . ويظهر التهشيم في كل بقعة من اطراف العاصمة لا سيما العمارات الكبيرة ومنها سراي الحاكم من الداخل . اما من الخارج فلا يزال مدخل السراي سالما وقد نقش على جانبيه تهنئتان ساميتان احداهما من الملك جورج السادس تتضمن منح الجزيرة الباسلة وسام صليب جورج ،

Digitized by Birzeit University Library

والثانية من فرانكلين روزفلت يمجد بها البطولة الخارقة التي ابدتها الجزيرة في مقاومة غارات العدو إبان الحرب الماضية . والسير بالجزيرة الى اليسار مثل بريطانيا تماماً ، اما أسماء الشوارع والساحات العامة فكلها انكليزية والانكليزية هي لغة الحكومة الرسمية .

واهل مالطه قصار القامة سمر الوجوه يشبهون سكان شواطئ البحر المتوسط من حيث اللون والقامة والهيئة العمومية ، ولا ترى اثراً كبيراً للجمال لا بين النساء ولا الرجال . ويلبس بعض نساء مالطا المتقدمات لباساً تقليدياً طريفاً يشبه الغربال المقوس وقد تدلى منه رداء اسود . ويرتكز الغربال فوق الرأس بشكل فني يقيهن وهج الشمس اللاذع .

ويرطن اهل الجزيرة بلغة هي خليط من العربية والانكليزية والايطالية وتتغلب على القسم العربي منها اللهجة المغربية . وفي فاليتا جريدة يومية ، بالانكليزية طبعاً ، تدعى «تيمس اوف مالطا» رئيس تحريرها امرأة تدعى مابل ستركلند .

وتنتشر في ارض الجزيرة مدن اخرى صغيرة اهمها «سليما» وتجاور فاليتا ولا يفصل بينهما الا جبل صغير . ولهذه المدينة الثانية مرفأ مستقل بشكل بحيرة مستطيلة رائعة المنظر . ومرفأ سليما محبب جداً الى قلوب الغواصات لكثرة ما تحتاطه من الصخور العالية المجوفة ولاحتجابه عن عيون العذال .

والجزيرة على وجه العموم ظريفة وهواؤها جاف لطيف والحاجيات فيها رخيصة لضآلة ضرائبها الجمركية ، كذلك المأكولات لا سيما اللحوم والاسماك ، ويتغلب على مأكولاتها ومشروباتها العنصران الانكليزي والايطالي . واكثر اهليها من المسيحيين ويتغلب بينهم المذهب الكاثوليكي . وتصلح الجزيرة لقضاء اجازة اسبوعين خلال المواسم القصيرة .

Digitized by Birzeit University Library

وقد ابحرنا عنها في المساء فكانت كلما ابعدنا عنها قليلاً تضاءلت وانكمشت حتى اصبحت تشبه صخرة صغيرة في عرض البحر ، فنقطة في بحر ، ثم اختفت عن العيان حتى لم نعد نستطع تحديد مكانها بالضبط . وهنا ابدى رفيق سفر بجانبي دهشته قائلاً يا سلام ! لقد اختفت الجزيرة تماماً عن العيان ، فكيف تستطيع البواخر الاهتداء اليها في هذا البحر الشاسع ؟ فوافقته على ملاحظته واضفت على ذلك بان لدينا ادلة تاريخية تثبت صعوبة الاهتداء الى هذه الجزيرة بل واستحالته في بعض الاحيان . قال وكيف كان ذلك ؟ فقصصت عليه الحكاية التالية :

تمرد اهل مالطة في يوم من الايام على السلطة الحاكمة ، وكانت آنذاك من ممتلكات الدولة العثمانية . فلما بلغ مسامع السلطان خبر هذا العصيان ارسل احد قواده على رأس اسطول لتأديب اهل الجزيرة واخضاعهم . وابحر القائد واخذ يبحث عن هذه الجزيرة اللعينة في عرض البحار عدة اسابيع . وفي ذات صباح وردت الى السلطان من القائد اياه البرقية التالية :

« مالطه يوق »

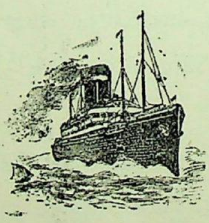

Digitized by Birzeit University Library

٦

جبل طارق

وصلت بنا الباخرة مضيق جبل طارق في اليوم السادس من مغادرتنا بور سعيد ، فنكون بذلك قد قطعنا البحر الابيض المتوسط من اقصى شرقيه الى اقصى غربيه في ستة ايام ، وكنا نسير بسرعة ٣٦٠ ميلاً في اليوم . والبحر الابيض من اجمل بحار الدنيا وأصفاها ، انيس لا وحشة فيه . انى توجهت بك السفينة ، تستأنس بمعالم اليابسة من جزر وسهول وجبال . مياهه خلال اكثر ايام السنة هادئة ، وزرقته صافية كعين الديك . وقد سرنا ، بعد مالطه ، طيلة يومين على محاذاة شاطيء افريقيا الشمالي فشاهدنا مدناً عدة ، وبعدها حاذينا شواطيء اسبانيا الجنوبية حتى وصلنا الى مضيق جبل طارق .

واخذت الباخرة تسير رويداً وتخف سرعتها تدريجياً حتى توقفت ، فرست . وهرعنا الى ظهر الباخرة ، فاذا بنا أمام شبح هائل وجهاً لوجه . وما هي الا دقائق حتى اشرقت الشمس فانقشعت الغيوم ، وتبددت سحب الضباب ، وتجلت من تحتها صخرة شامخة ، هائلة ، جاثمة على عنق البحر كالاسد الحذر لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها .

وهنا يردد لسانك لا شعورياً جبل طارق ، جبل طارق ! وترجع بك الذكرى الى هاتيك الايام الغر الميامين ، يوم اخترق ذلك البطل العربي طارق بن زياد القلعة الاوروبية فاكتسح اسبانيا باجمعها واسس فيها ملكاً للعرب ازدهر

Digitized by Birzeit University Library

خمسة قرون نشر العرب خلالها مدنيتهم ، وانارو السبيل الى أبناء القارة الاوروبية الذين كانوا آنذاك يتسكعون في دياجير الجهل والتعصب ، فهرع أبناء ملوكهم وامراؤهم ونبلاؤهم ليرتشفوا العلم والثقافة والمدنية والفلسفة من مناهلها العذبة الصافية في معاهد العرب العلمية .

وكان دخولنا الى مرفأ الجبل كالحلم . تصور انك تسير في صحراء لا نهاية لها ، واذا بسور عظيم يعترض طريقك تسير في ظله حتى يجابهك باب كبير مفتوح على مصراعيه فتلجه واذا بك في حوش مستدير متسع وفي طرفه البعيد اكمة على اسفل سفحها بيوت عديدة متلاصقة . وهكذا تدخل الى مرفأ جبل طارق ، وهذا ما تراه عندما تدخل بك الباخرة ، هذا الحصن المنيع . حوض مستدير عظيم الاتساع ، انتشرت على اطرافه عشرات السفن من تجارية وحربية ، ومراكب كبيرة وصغيرة للصيد والنزهة . وتربض الصخرة التاريخية العظيمة في آخر الحوض بخط مستقيم من الشرق الى الغرب كجزيرة هائلة بعيدة عن اليابسة أميالاً وفراسخ ، وقد غطت أشجار الصنوبر أعلاه واواسطه . وانتشرت بيوت المدينة ، مدينة جبل طارق ، على طول سفح الجبل وامتدت حتى الشاطيء الصخري ، وتشبه بذلك كثيراً مدينة حيفا وخلفها جبل الكرمل . وليس لمرفأ الجبل ارصفة كبيرة ، كما ان الحوض الداخلي قريب الغور . ولذلك رست بنا الباخرة على بعد كيلومترين ، واتت صغار الفلك تنقل العفش والركاب وكانوا من موظفي حكومة المضيق وعائلاتهم ، وبينهم بعض التجار الهنود والاسبان .

والمعروف عن هذا الجبل انه قطعة واحدة من الصخر الصلب ، ويقال بان داخل هذه الصخرة يكاد يكون أجوف ، لا لان السوس نخرها فاتى على احشائها ، بل لان يد المهندسين نقرتها فانشئت داخلها مدينة عجيبة ، وسراديب وعنابر تتسع

Digitized by Birzeit University Library

لكميات هائلة من الأسلحة والذخائر ، وان هناك خزانات ، ومطارات ، وكراجات ، ومعامل كثيرة لمختلف الصناعات والترميمات . وقد قيل إبان الحرب بانه لو دخلت اسبانيا ضد الحلفاء وحوصر الجبل ، لاستطاعت حاميته المقاومة عشر سنوات لما لديها من المؤن والذخائر ومعدات الدفاع الكاملة .

ويتضح لكل ذي عينين بان هذا الجبل السحري هو مفتاح باب المضيق يغلق حامله به المضيق كيفما شاء دون اية صعوبة ، اذ ان طرفي البر الافريقي والاوروبي على مرمى العصا من جانبي الباخرة العابرة . اما قفا الجبل فمنحدر هائل من الاسمنت المسلح تعترضه الاقنية بكثرة قيل انها لجمع مياه الشتاء . وقيل لاغراض اخرى والله اعلم .

ولم تكد تنتة المعاملات الرسمية من جوازات وكرنتينا وجمرك ، ويرجع موظفوها الى قواعدهم في المرفأ ، حتى تجمعت حول السفينة سوق عائمة غاية في الطرافة . فخلال بضع ثوان حاصر الباخرة اسطول من القوارب الصغيرة ، تشبه كثيراً قوارب نقل الركاب في مرفأ يافا وبيروت ، وعلى كل منها بحاران أحدهما يجذف والآخر يلوح بذراعيه في الهواء . ولما التصقوا باسفل الباخرة ، تطلعنا اليهم فاذا بكل قارب حانوت صغير يحتوي على انواع السلع المنتقاة حسب الطلب ، والطلب هنا كل سلعة معدومة الاثر او غالية الثمن في انكلترا ، او خاضعة لنظام الكوتا والكوبونات . وكان بين هذه السلع ساعات سويسرية ، وجوارب حريرية ، وشالات اسبانية ، وخمور وفواكه وروائح وحلى وغيرها . وكان التجار والبحارة من سكان مدينة الجبل يرطنون بلهجة انكليزية مهشمة . وكانت طريقة البيع والشراء ان تقترب هذه القوارب حول اوطأ سطح من سطوح الباخرة ينزل اليه المسافرون ويتفقدون البضاعة عن علو عشرة امتار على الاقل وذلك بالعين المجردة ، والويل

Digitized by Birzeit University Library

يومئذ لقصيري النظر . وهنا تبدأ المفاصلة حتى يتفق على الثمن النهائي . ويبدأ عادة بثلاثين شلناً مثلاً ، ثم يتدحرج حتى يستقر على خمسة شلنات ، ويتبين أخيراً بان السلعة لا تساوي خمسة قروش .

وعند الاتفاق النهائي يقذف التاجر الى الزبون كرة من الليف المحكم اللف مربوط بها حبل رفيع متين في آخره سلة من القش الطري ربط طرفها الثاني بحبل آخر يتدلى في القارب ويمسك به التاجر . يسحب الزبون الحبل فتصعد اليه السلة فيضع فيها الثمن المتفق عليه ويرخي الحبل فتصل السلة الى القارب ويجوفها الدراهم فيدخلها احد البحارين الى جيبه ويضع مكانها السلعة فيسحبها الزبون بالطريقة نفسها . وكان مشهداً مسلياً طريفاً استمر ساعتين كاملتين بيعت خلالها مئات السلع . كان صاحبنا يلهو بالتفرج على هذه الطريقة الطريفة إذ لم ير مثلها قبل اليوم على كثرة اسفاره . وكان بجانبه رفيقا سفر أحدهما مصري والآخر شامي يتشاوران على شراء بعض الاغطية من الحرير النباتي من قارب كان يحوم حول ظلها . وكانت الاتصالات التمهيدية ، وكان الاخذ والرد وتم الاتفاق على ان يشتريا اربعة اغطية بسعر خمسة وعشرين شلناً للغطاء الواحد . فصعدت السلة ووضعا بها الجنيهات الخمسة . ورجعت السلة الى القارب وكان طرف الحبل لا يزال في يد الرفيقين . واخرج احد البحارين الجنيهات الخمسة ودسها في جيبه ومال على اذن زميله واسر بها بضع كلمات . وباسرع من لمح البصر اخرج الثاني من جيبه سكيناً حادة قطع بها الحبل واندفع القارب نحو البر كالبرق الخاطف وكأن به الشيطان او موتوراً بقوة مئة حصان . وذهل الرفيقان واسقط في يدهما واخذا يضربان أخماساً في اسداس ، ثم اخذا يصيحان بملء صوتيهما : « يا خواجات ، اتم ناس اوروبيون متمدنون مهذبون لا يليق بكم ان تقدموا على مثل هذا العمل المشين . هاتوا بضاعتنا

Digitized by Birzeit University Library

او ارجموا لنا الفلوس . . . » وذهب صراخهما مع الريح ، وذهبت الريح بالفلك ، وذهب الفلك بالخواجات وفي جيوبهم الفلوس وفي سلالهم البضاعة ، وكان ضرباً من القرصنة العلنية الوقحة تحمر منه خجلاً وجوه قرصان الصين في القرون الوسطى .

ووجم الرفيقان والتفتا الى صاحبنا فاذا به في ذهول مما رأى لا يدري ما يقول . ولم يصدق الثلاثة ما رأته اعينهم ، ورجعوا الى قواعدهم بين مصدق ومكذب حتى قر قرارهم على انه من المستحيل ان يقع مثل هذا العمل الاجرامي الوقح بمثل هذا الاستخفاف بالنظام والقانون والدنيا والدين في رابعة النهار وفي اوروبا ام المدنية وملجأ الحق والحرية . ولذلك اتفقوا على ان ما رأوه لم يكن الا حلماً نهارياً نتج عن تلبكات في المعدة من اكل الباخرة .

وكانت قاعدتهم التي رجعوا اليها مكسوفين عنبر النوم رقم سبعة واربعين . وكانوا فيه عشرة ، واذا بخمسة من الباقين قد وقع لهم ما وقع المرفاق بالتمام والكمال مع اختلاف في القيم . وقد تبين فيما بعد بان اللعبة نفسها قد لعبت على عشرات المسافرين من ركاب الباخرة في آن واحد ، وان القوم هنا اعتادوا ارتكاب هذا النوع من القرصنة مع كثير من البواخر الكبيرة التي ترسو في مرفئهم . وطريقتهم في ذلك ان يتظاهروا بالامانة والمعاملة المستقيمة عند افتتاح السوق حتى انهم يرسلون البضاعة قبل الثمن ليتفقدها الزبون . ويستمرون في ذلك حتى قبيل موعد قيام الباخرة ببضع دقائق ، ولديهم التفصيلات التامة مقدما ، فيقدمون على قرصنتهم هذه . ولا يكاد المسافر يتبين ما حدث له ، حتى تكون ثقوب الجبل قد ابتلعت القرصان ، وتكون الباخرة قد خرجت من المرفأ واصبحت في عرض البحر ، ولمن تشكو عندها امرك ، وكيف الاتصال ، وبمن ؟

فيا ايها العرب ، احذروا قرصان المرافئ ولا تضعوا اموالكم في السلال قبل ان تصلكم البضاعة وتتيقنون قيمتها ، وقد اعذر من انذر والسلام .

Digitized by Birzeit University Library

٧

الوصول

وما كادت تخرج بنا الباخرة من مضيق جبل طارق حتى وجدنا انفسنا مباشرة في عرض المحيط الاطلنطي وجهاً لوجه . ثم دارت الباخرة الى اليمين وسارت صعداً الى الشمال بخط يكاد يكون مستقيماً مارين بخليج بسكاي وعلى محاذاة الشاطئ الغربي البرتغالي والافرنسي . وكنا بذلك نتخطى خطوط العرض شمالاً فنؤخر ساعاتنا ثلاثين دقيقة في اليوم الواحد حتى توافقنا بتوقيت غرينتش في اليوم الرابع وأصبحنا بذلك متقدمين ساعتين عن توقيت مصر وفلسطين .

وعند ختام هذه الرحلة البحرية كنا قد تعرضنا الى جميع حالات الطقس وتقلبات الجو فيوم مغادرتنا بور سعيد كان الحر خانقاً والرطوبة كثيفة تفتك بالثياب وما تحت الثياب . واستمرت هذه الحالة اربعة ايام بلياليها بلغت روحنا خلالها التراق وليس لها من واق . وقد تجرد المسافرون من معظم ثيابهم حتى كأن القوم قد رجعوا الى احتضان مذهب العراة ، إذ لم يبق على الكثيرين سوى ما يستر العورة او ما هو اقل من العورة . وما كدنا نبتعد عن شواطئ مالطه في اليوم الخامس حتى اخذت درجة الحرارة تنخفض باطراد رويداً رويداً ، والرطوبة تتضاءل في الجو ثم تختفي ، وتحول الطقس الى حر خفيف في النهار وبرد ناعم في الليل حتى المضيق . واعتدل الطقس في الاطلنطي ، ثم تحول الى برد في الليل والنهار ، ولم نكد نصل شواطئ بريطانيا الغربية حتى كنا قد دخلنا في منطقة المطر الغزير

Digitized by Birzeit University Library

والبرد القارص والعواصف الهائجة ، وإذ بجميع من في الباخرة يتدثرون بالدافي من الثياب الصوفية ، ويلتفون بالثقيل من المعاطف والاردية ، وإذ بالنوافذ يحكم اغلاقها ، ونار التدفئة يشتعل اوارها وكأننا في اواسط آذار ، ذى العواصف والامطار ، ولما كانت الباخرة ترسو في الخليج كان راديو لندن ينقل الينا خبر الطقس ويقول « تهطل الامطار بغزارة وبدون انقطاع منذ ثماني عشرة ساعة في جميع مناطق جنوبي الجزيرة البريطانية » . ومن حسنات الاسفار البحرية ان هذا التبدل المستمر في حالة الطقس خلال فترات قصيرة من الزمن ينشئ في جسم الانسان واغشيته مناعة ضد تقلبات الجو وتهجماته .

ويختلف المحيط الاطلنطي كثيراً عن البحر الابيض المتوسط . فهو قلق مضطرب كثير الحركة لتعرضه لمجاري الهواء والسيول المتدفقة من مناطق القطب الشمالي . وهو احد المحيطات الخمس في هذا الكون ، وتستولي فيما بينها على ثلاثة ارباع الكرة الارضية تاركة الربع الاخير لليابسة . هذا ما تعلمناه في المدارس الابتدائية منذ كذا سنين ، ولا ادري ان لم تكن مساحة اليابسة قد زيدت مؤخراً عن طريق التجفيف لتخفيف ازمة المسكن والمأكل . ومن يدري ، فقد يخترع احد العلماء قنبلة ما وراء الذرية تفجر في قاع البحر الابيض فتذهب بمياهه بخاراً يتناثر في سماء اللانهاية فتفرج بذلك كثير من الازمات ، وقد فكر في ذلك نفر من العلماء قبل القنبلة الذرية . وقد اشتهر هذا المحيط في التاريخ الحديث بالميثاق الذي يحمل اسمه ، ويتحدثون عنه في بعض انحاء المعمورة كما يتحدثون عن الغول والعنقاء والخل الوفي .

وصلت بنا الباخرة حوالي منتصف الليل الى الشاطئ الغربي من انكلترا ، وتوقفت قبالة خليج ليفربول ورست تنتظر المد ، فقد كان الخليج في حالة جزر

Digitized by Birzeit University Library

يحول دون اقتراب البواخر الكبيرة من المرفأ . وفي الصباح تقدم نحونا رورق بخاري صغير وربط مقدم باخرتنا الكبيرة بحبل وقادها نحو المرفأ الى الرصيف كما يقود الحمار الصغير قافلة من الجمال .

وهكذا وصلنا مدينة ليفربول في الربع الاخير من شهر اغستوس ، شهر الصيف والشمس الساطعة والحر الشديد . ولكننا لم نر من المدينة سوى أشباح وخيالات اما المدينة نفسها فقد احتجبت وراء ستار من الغيوم الغبراء مكتنفة بالدخان الاسود القاتم والرطوبة الثقيلة . وأمام خيال المدينة ، ظهرت صور واشباح لعدد هائل من الاخشاب والحدائد والاجسام الصلبة متعانقة متشابكة تبين فيما بعد انها عشرات الرافعات والبواخر الراسية في مرفأ المدينة .

جو قاتم كئيب ، ورد قارص ، ومطر منهمر : بهذا استقبلنا ثغر الجزيرة الاول في الصيف وفي ضحى النهار . ويمكن اعتبار هذه الصورة نموذجاً للمناخ الانكليزي معظم ايام السنة .

Digitized by Birzeit University Library

٨

لندن

ويعود صاحبنا الى لندن بعد غياب اضطراري استمر ثماني سنوات طوال رأت هذه العاصمة خلال بعضها اسوأ ما رأته إبان تاريخها الحافل بالحوادث الجسام. ولم يكن صاحبنا بالغريب في هذه المدينة، فقد قضى فيها خمساً من السنين في مستهل ربيع حياته تركت في نفسه اجمل الذكريات وابعد الآثار. وكان بعدها يكرر الزيارات عاماً بعد عام ليظل على اتصال بحياة اهلها، ومدينة عرفها، وثقافة اغترف منها القدر الكثير حتى اضطرته قاهرات الظروف الى التوقف عن هذه الاسفار الحولية بضع سنين تتبع خلالها أخبار هذا البلد العظيم في الصحف، والاذاعات، والصور، الثابت منها والمتحرك. فاطلع، كما اطلع العالم اجمع، على ما قاسته هذه المدينة الجبارة من الشدائد والاهوال، والتخريب والتدمير من جراء غارات عنيفة كانت تمطرها وابلاً مدراراً من القنابل على اختلاف انواعها وأفعالها، غارات لم تستمر يوماً او يومين، او اسبوعاً او اسبوعين، بل الاشهر الطوال ليل نهار.

وكان صاحبنا، مما سمع وما رأى، ينتظر ان يرى لندناً، او معظمها على الاقل، قاعاً صفصفا ليس فيه غير الانقاض المتراكمة والاطلال البالية. وكان ان وصلها وقد انسلخ الهزيع الاول من الليل، فذهب تواً الى فندق ليستريح من وعثاء السفر ولم ير شيئاً. وكان ذلك مساء يوم سبت في الربع الاخير من شهر آب. واطل من نافذته صباح الاحد، فاذا بشي من الشمس مشرقاً يشع بقدر خفيف

Digitized by Birzeit University Library

من الحرارة . لبس ثيابه على عجل مغتنماً هذه الفرصة النادرة وهرول الى الهواء الطلق ، كما هرول عشرات الالوف للتمتع بصحو الطقس ، وصفاء الجو ، ولقضاء سويعات ممتعة خلال عطلة الاسبوع . وقد انتقل صاحبنا من شارع الى شارع ، ومن ساحة الى ساحة ، ومن سوق الى سوق . ومن حي الى حي ، ومن منتزه الى منتزه حتى ادى به المطاف الى حديقة « هايد بارك » حيث القى بنفسه على مقعد خشبي مريح على شاطئ بحيرة «السربانتاين» تلك البحيرة الاصطناعية الخلابة التي جعلت من منتزه هايد بارك جنة الله في ارضه لكثرة ما احتاط بها من الرياض الغناء ، وظلل جوانبها باسقات الاشجار الدانيات الاغصان ، وقد انتشرت فوق سطحها مئات البط والاوز والفلك الصغيرة تحمل الازواج المتحابة الدنفه يجذفون بسواعد مفتولة وقلوب خافقة ونفوس مبتهجة مرحة ، وقد نسوا لساعتهم هموم هذه الدنيا ومتاعبها وما فيها ومن فيها . أمام هذه الروائع جلس صاحبنا يمتع النفس بما يشاهد ، ويتأمل ما رآه قبل هنيهة إبان تطوافه ، وما رأى إلا عجبا .

كان هايد بارك يعج بعشرات الالوف من الاناس كعادته صبيحة كل احد تنحسر سماؤه عن شمس مشرقة وجو رائق . ولقد انتشر القوم فوق مروجه وبين الاشجار ، وفي أحراشه وحول الازهار ، انتشار النمل في البيادر . وتكتلت كتل منهم حول منصات متحاذية نصبت في ساحة الحديقة المركزية ، واعتلى كل منصة خطيب يدعو القوم الى اعتناق او نبذ عقيدة او مبدأ ، او ديانة او سياسة . فهذا يدعو الى الاشتراكية ويحمل على الرأسمالية ، وذاك يهاجم الشيوعية ويدعو الى الاحتفاظ بالتقاليد القديمة ، وهندي يدعو الى الاسلام ، وحاخام يفسر التلمود ، وفريق من منشدي جيش الخلاص يرتلون آيات الخلاص ، وهذا قسيس يدعو الى الانجيلية ، وذاك راهب يقول « بل الكثلكة خير وابقى » . منبر عام ، وحرية

Digitized by Birzeit University Library

أفكار مع صراحة في التعبير ، وفي كل حلقة سؤال وجواب . وحول كل منبر نقاش وجدال . والبوليس الانكليزي التقليدي يتجول بينهم كالبرج المتحرك ، يبتسم الى هؤلاء ، ويهزوء من اولئك . وهو آمن مطمئن بان الجميع سيعودون الى بيوتهم كما اتوا ، بعد ان يكونوا قد روحوا عن انفسهم ونفسوا عن احساساتهم ومشاعرهم ، ونسوا كل ما سمعوه وما قالوه .

وقد كانت حلقة العمال اكبر الحلقات ، كما كان صوت خطيبهم اقوى الاصوات ، ولا غرو في ذلك فظهره مسند الى حائط رقم ١٠ داوننغ ستريت . وعلى كل فان من المظاهر التي لا جدال في صحتها ، ان الريح العمومية في هذه البلاد تهب نحو اليسار بخطى انكليزية متثاقلة ، ولكنها على كل حال اشتراكية لو رأها «لينين» لما تبينها بل لتنكر لها وحسبها «محافظة» القرن العشرين .

هذا ما رأه صاحبنا في هايد بارك وهو المنتزه الرئيسي لسكان مدينة لندن ، اما ما شاهده في المدينة نفسها ، فكان العجب العجاب . لقد وجدها اشبه ما تكون كما تركها قبل ثماني سنوات ، بل اجمل قليلاً واكثر انتظاما . اذاً أين ما فعلته المتفجرات ، والحرقات ، والمقذوفات والصواريخ ؟ يقيناً بانهم لو اتوا برجل من قبائل الهوتنتوت في اواسط افريقيا لم يسمع عن حرب القنبلة الذرية وقالوا له « لقد كانت لندن هدفاً لأعنف الغارات الجوية في التاريخ عدة اشهر» لما صدق . اما من سمع وتقصد ، فانه يرى هنا بيتاً مشعثاً ، وهناك جداراً مهدماً ، وفي ناحية اخرى ارضاً خالية قامت عليها فيما مضى عمارة كبيرة . وهي مشاهد الفناها في عواصم اوروبا ، لا سيما القديمة منها ، حيث يهدم بناء قديم بين الفينة والفينة ويشيد مكانه آخر حديث .

والواقع ان هؤلاء الانكليز الشياطين اعادوا بناء ما تهدم من عاصمتهم بسرعة

Digitized by Birzeit University Library

لا يكاد يصدقها العقل ، وحسنوا كثيراً من عمران المدينة بتطبيق احدث قواعد تنظيم المدن على الاحياء القديمة ذات الشوارع الضيقة الملتوية . اما ما تهدم من الابنية والمؤسسات الضخمة في الشوارع والساحات الكبيرة ، فقد ارجعوها الى ما كانت عليه من حيث الشكل والهندسة والموقع بحيث لا يتسنى لأي زائر ان يدرك بان تغييراً ما قد حدث في تلك البقعة . وهذا مظهر من مظاهر تمسك القوم بالقديم من تراثهم وتقاليدهم .

وتحرك الحنين في نفس صاحبنا لرؤية جامعته حيث ارتشف من مناهلها الغزيرة العذبة قطرات طيبة من ثمرات العلم والثقافة اليانعة . فاستوقف سيارة واعطى سائقها عنواناً معيناً واغمض عينيه ليستعرض في مخيلته ذكريات الصبا وعهد التلمذة . ويفتح صاحبنا عينيه على صوت وقوف السيارة فلا يرى شيئاً فيقول « لقد ضللت السبيل يا صاحبي» فيجيبه السائق وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة المشفق « كلا يا سيدي ، هذا هو المكان ، غير ان البنيان الذي عرفت قد أطارته الرياح العاتية ، وشيد مكانه هذا » . ونظر صاحبنا الى «هذا» فاذا به بناء شاهق ضخم يتألف من نيف وعشرة طوابق من الحجر الابيض الناصع ، شيد على طراز هرمي وقد اختفت طبقاته العليا بين ستائر من الغيوم المنخفضة . وقد عرف صاحبنا فيما بعد بان المنتدى العام وحده في الطابق الارضي من بناء الجامعة الجديد هذا يتسع لألفين من اهل العلم ، فتمتم لنفسه قائلاً : « وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » ، فلولا تلك القنبلة الطائشة لما شيد هذا البناء الضخم ، ولا بعد خمسين سنة . فلندن غير نيويورك ، والانكليز غير الاميركان . هؤلاء يعتزون بكل ما هو قديم ، واولئك يفتخرون بكل ما هو حديث . والتمسك بالقديم من أسرار عظمة القوم هنا ، والانجذاب نحو الحديث من اسباب نجاح خليط الاقوام هناك وسيطرتهم في عالمي الصناعة والمال .

Digitized by Birzeit University Library

٩

عهد النقط والكوبونات

وكما نستطيع ان ندعو عصرنا اليوم «عصر الاذاعة والطيران» ، والحرب الاخيرة بحرب الصواريخ والقنبلة الذرية ، كذلك نستطيع ان ندعو العهد الحاضر في بريطانيا «عهد النقط والكوبونات» ، فجميع أصناف الاكل والمواد التي يتكون منها الاكل في بريطانيا اليوم — حاشا بعض الفواكه والخضار — خاضع للتحديد والتوزيع طبق نظام الكوبونات . وقد خرجت المسئلة عن كونها اجراءات فوق العادة تتخذ في حالة حرب او طوارئ . فقد مضى على انتهاء الحرب اكثر من سنة والحالة لم تتغير بل ازدادت سوءا في بعض الحالات وازداد الحد والتوزيع . فتحديد استهلاك الخبز لم يمض على تطبيقه شهران .

هناك سببان رئيسيان لنظام الحد والتوزيع هذا : اولهما ، وهو الاهم ، اقتصادي قومي ، وثانيهما ، وهو مهم ، انساني عالمي .

السبب الاول : خرجت بريطانيا من الحرب الاخيرة وهي على شفا الافلاس ، إذ ليس من السهل على اية امة — حتى على بريطانيا العظمى — ان تنفق من رأس المال القومي ستة عشر مليوناً من الجنيهات الاسترلينية يومياً لمدة ست سنوات ، وتبقى بعد ذلك محتفظة بمركز مالي متين . والانكليز امة تاجرة ، عليها ، ان ارادت البقاء ، ان تستعيد مكانتها المالية قبل كل شيء . واسترداد المكانة المالية لا يأتي عن طريق الاسراف والتبذير ، بل عن طريق الاقتصاد والتقتير . ومن هنا

Digitized by Birzeit University Library

كان التوزيع والتحديد . فقد كان الفرد الواحد من المبذرين المتعنجهين ينفق فيما مضى خمسة جنيهات بل وعشرة على الوجبة الواحدة من الاكل بما يتخلله من السوائل ، اما اليوم فقد يأتي اللورد نوفيلد من معامله في اكسفورد الى لندن ليتبرع بمليون جنيه لمؤسسات مشوهي الحرب ولكنه لا يستطيع ان يتناول من الاكل ساعة الغذاء ما تتجاوز قيمته الخمسة شلنات . ووجبة الخمسة شلنات هذه نتيجة درس علمي دقيق . فهي تحتوي على الكمية اللازمة من الفيتامينات ووحدات الحرارة للاحتفاظ بالحياة .

ومما لا ريب فيه ان الصحة العامة في بعض مدن الشرق الاوسط تحسنت خلال سني الحرب من جراء تحديد استهلاك اللحم والشحم خلال بعض أيام الاسبوع . فمن الحقائق المعروفة ان العالم اجمع كان يستهلك من الاكل اكثر مما يحتاجه لمجرد الغذاء والاحتفاظ بالحياة . اما في الشرق فمن المحقق ان ابناء اكثر مدنه يستهلكون من المواد الغذائية ، لا سيما الدسمة منها ، اربعة اضعاف ما تحتاج اليه أجسامهم . فيذهب الجزء القليل لتغذية هذه الأجسام والاحتفاظ بحياتها ، بينما يذهب الباقي لاتلاف هذه الأجسام والقضاء على حياتها بالتدريج . وقد اثبتت الاحصاءات في بلد مثل مصر مثلاً بان الذين يموتون فيها من التخمة اكثر من اولئك الذين يهلكون جوعاً ، على شدة ما يعانيه بعض أبناء ذلك البلد الطيب من الفقر الشديد الذي أصبح الشغل الشاغل لجميع المفكرين من المصريين حكومة وصحافة وشعبا .

والظاهر ان حكاية الاكثار من الاكل لا تنحصر في عنصر واحد او قوم . فقد رأيت الناس يكثرون من الاكل في تركيا وهنغاريا واليونان وتشكوسلوفاكيا وغيرها من بلدان اوروبا الوسطى والجنوبية . اما في رومانيا فما يلتهمه انسان يكفي لاتخام أربعة من بني قحطان ، وبنو قحطان في الرعيل الاول من الذين يعرفون كيف يأكلون .

Digitized by Birzeit University Library

وهكذا نجد ان تحديد كمية الاستهلاك من المواد الغذائية له فائدة كبيرة ذات شقين : الاول عام ، وهو الاقتصاد والتوفير وفي ذلك تنمية الثروة القومية ، والثاني خاص وهو تحسين الصحة واطالة الحياة . فمن الناس من يحجر عليهم شرعاً لجنونهم او سفههم . وذلك للحد مما يتلفونه من الاموال على هذا السفه وذلك الجنون وبعض الناس مجانين اكل وسفهاء شرب .

اما من الوجهة الانسانية ، فالتحديد في الاكل يؤدي الى توفير كميات من المواد الغذائية لاطعام المتضورين جوعاً من بقايا البشرية في اوروبا وغير اوروبا . وبريطانيا تعتبر نفسها شريكة في مسؤلية إطعام هذه البقايا بوصفها إحدى الدول الثلاث المنتصرة . ومما لا ريب فيه بان فضلات الطعام التي تلقى في المزابل تكفي لاطعام الملايين من الجياع . وقد ثبت في إحصاء اجري منذ سنوات في لندن ، بان ما يتبقى على أطراف الصحون من معجون الخردل (المستاردة) في بريطانيا وحدها تبلغ قيمته مليونين من الجنيهات الاسترلينية في السنة الواحدة . فبعملية حسابية صغيرة تتبين لك فوائد التحديد والتوفير في هذا المضمار .

وقد درس هذا النظام ، نظام توزيع الاكل بالنقط والملابس بالكوبونات وما يحتاج اليه الفرد من المأكل والملبس في اليوم والسنة ، درساً دقيقاً مدهشاً . ويطبق النظام في جميع أنحاء المملكة المتحدة بدقة وشمول عجيبين .

ولا يجد القادم الى هـــذه البلاد أية صعوبة في الحصول على ما يسمح له به القانون من النقط والكوبونات . تذهب غداة وصولك الى مكتب المؤن في المنطقة التي تقطنها فتجد عشرات الموظفات يقمن بنفس العمل للتسهيل والسرعة . فتقدم جواز سفرك وما يطلب منك من المعلومات ثم ترجع بعد ساعتين فتجد جميع ما يلزمك من دفاتر النقط واوراق الهوية قد هيئت وارفقت بخمسة عشر كوبوناً

Digitized by Birzeit University Library

للالبسة — وهي قيمة مبدئية — يصحبها طلب معباً لكوبونات الالبسة تذهب به تواً الى مكتب اللجنة الاقتصادية حيث تعطيك موظفة اخرى ما يسمح لك به القانون من كوبونات الالبسة حسب المدة التي ستقيمها والبلاد التي تأتي منها. فابناء دول شمالي اوروبا مثلاً لا يستحقون كوبونات البسة. وهكذا تضمن لنفسك شيئاً من المأكل والملبس طيلة إقامتك بعد سويعات من وصولك.

اما نقط الاكل فمحدودة ولكنها مربوطة بالصنف. مثلاً لا تستطيع ان تستعمل نقط الزبدة للشوكولاته، او نقط اللحم للصابون. فكل عنصر له نقطه الخاصة به. اما كوبونات الالبسة فهي أيضاً محدودة من حيث الكمية ولكنها طلقة من حيث كيفية الاستهلاك يشتري بها صاحبها ما يشاء. وقد قدرت السلطات الحد الادنى لما يحتاجه الفرد من الكساء طيلة السنة، وخصصت لذلك العدد اللازم من الكوبونات، وهو اربعين كوبوناً في السنة، وعينت عدد الكوبونات لكل صنف، فللبدلة الرجالية الكاملة مثلاً ٢٦ كوبوناً، وللمعطف ١٨، وللقميص ٨، وللحذاء ٩، وللجورب ٢/١ ١، وللمنديل ٢/١ وهكذا.

وكما يحدث في جميع أنحاء العالم من المحاولات للتحايل على القانون يحدث هنا أيضاً، ولكن — والحق يقال — بصورة محدودة بالنسبة الى سائر البلدان المتمدنة. فقد ابتاع رجل دفتر نقط من امرأة، فحوكم الشخصان وعوقبا عقاباً صارماً. وقليلاً ما يحدث ذلك. اما كوبونات الالبسة فلها سوق سوداء — أيضاً محدودة — وقد تراوح ثمن الكوبون الواحد بين شلنين ونصف وثلاثة شلنات في هذه السوق.

ويشعر بتحديد المواد الغذائية صاحب البيت اكثر مما يشعر به الزائر. فالمطاعم العامة تحصل على بعض حاجاتها من المواد الغذائية غير ان طريقة تقديمها

Digitized by Birzeit University Library

للزبون مقيد بنظام خاص . مثلاً : يجب ان تتألف الوجبة الواحدة من حساء ولحم او سمك مع بطاطس او خضره ، وحلوى على ان لا يتجاوز سعر الوجبة الخمسة شلنات . ولا يجوز للمستهلك ان يطلب شكلين كبيرين بل عليه ان يتقيد بتوزيع الأصناف . هذا بدون خبز طبعاً . اما اذا اراد ان يأكل مع طعامه خبزاً ، فعليه ان يحرم نفسه من احد الصنفين الخفيفين — الحساء او الحلوى — إذ عند ذلك يحسب الخبز صنفاً مستقلاً في القائمة .

ويطبق هذا الترتيب في جميع المطاعم الانكليزية بكل نظام ودقة وبدون استثناء . فصاحب المطعم الانكليزي لا يمكن ان يعطيك قطعة خبز صغيرة لا يسمح بها النظام ، ولا ان يستوفي منك ملاً واحداً اكثر من خمسة شلنات ، غير ان هناك عشرات بل مئات المطاعم غير الانكليزية في لندن ، من اوروبية واسيوية وغيرها . فهناك المطاعم الروسية ، والبولونية ، والافرنسية ، والايطالية ، والهنغارية . والصينية ، والهندية وغيرها وغيرها بكثرة هائلة . ولأصحاب بعض هذه المطاعم نظرة في تفسير بعض مواد أنظمة الاكل قد تختلف عن وجهة نظر الانكليز . فمنهم من يعتقد بان القوانين والانظمة قد وضعت للتيسير لا للتعسير ، ولذلك تراهم لا يتقيدون كثيراً بحرفية هذه القوانين والانظمة . فاذا اضفنا الى سعة الصدر هذه في تفسير القانون الحقيقة الخالدة وهي ان اكل الانكليز على العموم لا طعم له ، وان اكل الامم المذكورة آنفاً يستهوي النفوس ، ادركنا السبب في كثرة الاقبال الهائلة على المطاعم غير الانكليزية في لندن لا سيما تلك التي في حي السوهو وهو الحي الذي تكثر فيه الطوائف الغريبة من اوروبية واسيوية يعرف عنه الكثير كل من شغف في صباه بقراءة الروايات البوليسية ، من طراز جون سنكلر وشرلوك هولمز ، والتي تكثر فيها الجرائم الليلية والطرق الملتوية في انجاز المعاملات على اختلاف انواعها .

Digitized by Birzeit University Library

١٠

التوفير الاجباري

ذكرنا فيما تقدم بان الغاية الرئيسية التي يتوخاها الانكليز اليوم ، هي استعادة مكانتهم المالية والاحتفاظ باسواقهم العالمية . وهم لذلك يوجهون جميع جهودهم الى هذا الهدف ويسلطونها عليه . وفي سبيل ذلك يحرمون انفسهم كأمة من بعض ضروريات الحياة وكثيراً من كمالياتها وذلك بالتوفير القومي العام الشامل . وفي بلوغ غايتها هذه ، تلجأ الحكومة الى طرق ثلاث ، هي :

اولاً — التشويق . فاينما سرت وانى ذهبت ترى الاعلانات واللوحات على اختلاف أحجامها وأنواعها منتشرة على واجهات الابنية الكبيرة ، وداخل السيارات العمومية والقطارات والمقاهي والملاهي وفي كل مكان يمكن ان يوضع فيه اعلان ، وكلها ملأى بعبارات التشويق للتوفير ، عبارات لا ينقصها الحافز على التحمس لتنفيذ رغبة الحكومة التي هي الامة بنفسها . فعقيدة الانكليزي ، وهو في ذلك على حق ، انه هو الحكومة ، ولكن تسهيلاً لتصريف الامور والاعمال ، ينتدب الى دوائرها من الافراد من يقوم بتنفيذ رغباته وارادته . ومن هذه الافراد تتكون هيئة حكومته . فاذا ما طلبت اليه هذه الهيئة ان يقوم بعمل معين ، قام به في الحال لاعتقاده الجازم بان ذلك في صميم مصلحته .

ثانياً — تحديد الاستهلاك الفردي . وقد اسهبنا في تفصيل ذلك عند البحث عن نظام النقط والكوبونات حيث حدد إصدارها وتوزيعها بنظام صارم . وقد يخطئ من يظن بان في استطاعة الانكليزي ان يشتري ما تصبو اليه نفسه من الأشياء التي لا تتقيد بنظام النقط والكوبونات ، فهذه أيضاً التجأت الحكومة

Digitized by Birzeit University Library

الى تقييدها في حملتها التوفيرية بنظام تحديد البيع المحلي .

وتحديد البيع المحلي هي الوسيلة الثالثة التي تلجأ اليها الحكومة في حملتها التوفيرية . قابلت عشرات من أصحاب اليسار من الانكليز الذين يودون ان يشتروا سيارة ولكنهم لا يستطيعون مع ان المصانع في بلادهم تقذف المئات منها كل يوم وتعرض آخر نماذجها في واجهات المخازن بكثرة . وكل ما يستطيع ان يتمتع به الانكليزي هو النظر اليها من وراء حجاب زجاجي . اما السيارات نفسها فللشحن والتصدير . تعمل المصانع الانكليزية ليل نهار — فتنتج السيارات ، والآلات الميكانيكية ، والمنسوجات ، والروائح العطرية ، والاحذية والاسلحة وغيرها ولكن القسم الاعظم منها للشحن . وغايتهم في هذا كله ، إصدار اكبر كمية ممكنة من منتجاتهم الى الخارج ، وإدخال اكبر كمية ممكنة من النقد الاجنبي الى بلادهم لتدعيم ماليتهم .

اما ما يستهلك من هذه المصنوعات البريطانية محلياً ، فمحدد بنظام الكوتا ، وهي الكمية المحدودة او العدد المحدود من كل سلعة حتى ما يتقيد منها بنظام النقط والكوبونات . والتحديد هنا على البائع لا على الشاري . وقد عينت السلطات المسؤلة الكميات اليومية او الشهرية او السنوية التي يستطيع البائع التصرف بها . وكثيراً ما تغلق الحوانيت أبوابها حول الحادية عشرة صباحاً بعد ان يترك أصحابها على أبوابها عبارة «نأسف فقد نفذت الكمية التي تسمح لنا بها الكوتا اليوم» . وكثير ما ترى على واجهات المخازن عبارة «هذه نماذج وليست للبيع» . وهي هناك للمستوردين من التجار الاجانب . وقصد الحكومة من هذا كله عدم تشجيع أفراد الامة على الصرف والشراء لتوفير النقد واستغلاله في الانتاج القومي . ولذلك فقد فرضت الحكومة حتى على هذه الكميات المحدودة ضرائب باهظة تدعى «ضريبة الشراء المحلي» وتتجاوز هذه الضريبة في حالات كثيرة ، لا سيما الكماليات مئة في المئة ، ومن اراد الشراء فليتفضل .

Digitized by Birzeit University Library

١١

الاشتراكية الاجتماعية

الاشتراكية السياسية في بريطانيا من الامور المشكوك بصحتها ، وقد كانت ولا تزال موضوع جدل ونقاش على كل حال ، لا سيما في الاوساط العريقة بالاشتراكية كروسيا مثلاً . فبعضهم ينظر اليها « كمحافظة » مقنعة ، بينما البعض الآخر يعتبرها «المحافظة» بعينها واذنها لا يتغير فيها غير الاشخاص والهيئات التي تتولى الحكم .

اما الاشتراكية الاقتصادية فيتولى السهر على تنفيذها عناصر متعددة منها الضرائب الباهظة كضريبة الايلولة ، وضريبة الكماليات ، وضريبة الدخل المتصاعدة وغيرها ، ومنها المحاولات الجدية ، وقد تحقق بعضها ، لتحويل الصناعات الكبرى من ملكية الفرد او الشركة الى ملكية الامة كصناعات الحديد ، والمصارف ، وصناعات السفن وغيرها ، ومنها تحديد وتوزيع الضروريات بالعدل والقسطاس على جميع أفراد الامة من حيث النوع والكمية .

اما الظاهرة التي لا ريب في تغلغل بوادرها بين جميع الطبقات ، فهي الاشتراكية الاجتماعية . ويدرك زائر انكلترا بعد الحرب هذه الظاهرة في بضعة ايام ، ان كان ممن عرفوا البلاد وأهليها جيداً قبل الحرب . ولهذه الظاهرة التي تكاد تشبه الانقلاب ، أسباب عديدة منها ما هو اقتصادي ومنها ما هو بسيكولوجي . ومما لا جدال فيه ان للحرب الماضية وما تركته وراءها من المخلفات تأثير كبير في إنضاج هذه الظاهرة ان لم تكن مسؤلة عن خلقها مباشرة . أما اذا كانت هذه الظاهرة نتيجة تطور طبيعي في حياة الامة الانكليزية ستستمر وتبقى ، او انها

Digitized by Birzeit University Library

عرض زائل سيتبخر ويتلاشى في الوقت المناسب ، فامر ستثبته لنا الايام بعد رجوع الامور الى حالتها الطبيعية من انظمة طوارئ وضرائب اضافية وغيرها .

ومن صور هذه الظاهرة ، إختفاء معالم الارستقراطية في الملبس والمظهر . فلم تعد ترى تلك السيارات الليموزين الفخمة من طراز الرولز رويس والسبانوسويزا تلمع داخلها القبعات الحريرية العالية وتتلألأ الجواهر الثمينة . لقد اختفت القبعة الاسطوانية والبونجور والمونوكل ، ولم تعد ترى في الاسواق والمنتزهات والسباقات الا رجالاً يلبسون مثل سائر مخلوقات الله لا تمييز بين اللورد منهم وكاتب الصحية وبائع الدخان والحلاق . فقد تساوى الناس في المأكل والملبس ، حتى في ركوب الباص وقطارات تحت الارض . وصلنا ليفربول على ظهر باخرة كبيرة ، وكنا خمسمئة واربعين مسافراً من مختلف الطبقات . وكان علينا ان نسافر الى لندن بالقطار والمسافة ست ساعات . قطعنا تذاكر القطار على ظهر الباخرة ساعة رسوها . فلم يسئلنا قاطع التذاكر عن الدرجة التي يريد السفر بها كل منا ، بل ذكر لنا سعر التذكرة وناولنا اياها فنظرنا اليها واذا بها كلها درجة ثالثة .

ومن صور هذه الظاهرة ، المرأة وما دخل من التطور على لباسها وحياتها . لاول مرة في تاريخ لندن تلبس المرأة البنطلون وتمشي في الاسواق . وهذه بدعة لم يكن يطاق رؤيتها قبل الحرب في عاصمة بريطانيا العظمى او غيرها من المدن الكبرى المحافظة . إذ لم يكن يسمح بها الا في المدن الساحلية وعلى الشواطئ فقط ، وتقوم المرأة باعمال لم يسبق ان اشتركت فيها قبل الحرب . فتراها بائعة تذاكر في السيارات العمومية وغيرها من وسائط النقل ، وموظفة في شتى الدوائر الحكومية ، وعاملة على الطرق ، سائقة سيارات ، في البواخر ، في محطات السكك الحديدية وفي المزارع وغيرها

ومن مظاهر هذه الاشتراكية الاجتماعية اختفاء الحفلات البيتية الكثيرة ، والضروري منها يقام في الفنادق باسعارها المحدودة . وهكذا كفى القوم القانون شر البذخ والتبذير في حفلات كانت تظل حديث الاوساط الراقية ردحاً من الزمن .

Digitized by Birzeit University Library

١٢

الانكليز والاخلاق

لم يفقد الانكليز شيئاً من مميزاتهم الخلقية على كثرة ما عانوه (ولا يزالون يعانون بعضه) من أهوال الحرب وشدائدها، وفتك الغارات وبطشها، وما تكبدوه من الخسائر الجسيمة في الارواح والممتلكات داخل بلادهم وخارجها، خسائر كادت تودي بهم الى شفا الافلاس، ومن شأن التعرض للشدائد والاهوال وجسيم الخسائر في الاموال، إحداث خلل في التوازن العقلي وهزة عنيفة في المزاج النفسي تودي بصاحبها الى تطورات في الخلق والتفكير لا يغبط عليها. وليس الامر هنا كذلك على الرغم مما يلاحظه المرء في بعضهم شيئاً من فقدان الاعصاب، ولا غرابة في ذلك، فليس من هاجمه الموت ونجا، كمن تعرض له وقضى.

وليس من الحكمة والانصاف في شيء ان يحكم المرء على الانكليز خارج بلادهم. فمن كان منهم خارج الجزيرة، لا يتمكن أحياناً من إظهار خلقه الحقيقي، كما ان خلقه أحياناً اخرى يتكيف ويتطور وذلك حسب الاوضاع والظروف. فهو خارج بلاده ليس «ابن بلد». إنه إما سائح او حاكم، او عالم، او رحالة. اما الانكليزي «ابن البلد» الحقيقي، فهو هنا، في عاصمة بلاده، وفي احيائها المجاورة المتواضعة، ذات الازقة الضيقة الملتوية المظلمة، وفي حاناتها الصغيرة الغاصة، في مدنها الريفية الكبرى وفي قراها، في جبالها وشواطئها، في مناجمها تحت الارض، وفي بواخرها على سطح البحار. الاول له صبغة اممية ووضع خاص، اما الثاني فهو «انكليزي» وبس

Digitized by Birzeit University Library

وتتعرف الى هذا الانكليزي «ابن البلد» حالاً عندما تلتقي به بعد طول الغياب فتجده لا يزال هاوياً للرياضة على ضروبها ، مغرماً بالسباقات وبالرهان في السباقات على اختلاف انواعها لدرجة الجنون ، فاذا ما اشترى جريدته الصباحية او المسائية ، أشاح بوجهه عن جميع أخبار العالم الرئيسية وكلها اليوم هامة مقلقة وقفز رأساً بعينيه الى العمودين الاخيرين من الصفحة الرابعة ، ليتتبع نتائج سباقات الخيل والكلاب والدراجات النارية واليخوت والمراكب الشراعية وغيرها وغيرها . وهو لا يزال دنفا بالسفر وحب الانتقال لا سيما لا خارج بلاده . يأخذ بالتفكير الجدي عند مستهل كانون الثاني في المكان والكيفية اللذين سيقضي بهما اجازته السنوية خلال شهر ايلول مثلاً ويقوم بتهيئة الترتيبات اللازمة خلال هذه الاشهر التسعة .

كان لدى صاحبنا بضعة عشر يوماً يتصرف بها دون عمل ، فاراد قضاءها في السويد ، فقيل له ان وسائط النقل محجوزة لثلاثة اشهر فولى وجهه نحو الدانيمارك ، فقيل له انتظر شهراً واحداً ، فالتفت غرباً وقال «ايرلندا» ، فاخبر بان وسائط السفر متيسرة غير ان الفنادق محجوزة لثلاثة أسابيع على الاقل ، فيئس واقلع . ومن أسباب هذا التهافت على السفر ، رغبة الانكليز الشديدة في التعويض عما ينقصهم من بعض عناصر الغذاء الرئيسية كالزبدة والجبن والبيض واللحوم والطيور والفواكه ، والبلاد الثلاثة المذكورة آنفاً ، بلاد خير وبركات ، والاستهلاك فيها حر من كل قيد .

وكما ذكرت في بعض الفصول السابقة ، فقد وضعت السلطات حداً أعلى للكمية التي يمكن للمسافر استهلاكها من المال حتى خارج بلاده ، وهي خمسة وسبعون جنيهاً فقط في السفرة الواحدة . وهذه لا تكفي لشيء في هذه الأيام التي بلغت بها أسعار الحاجيات والفنادق حداً جنونياً ، ولذلك فقد التجأ البعض ،

Digitized by Birzeit University Library

والحاجة ام الاختراع ، الى طريقة التضايف لتحاشي انفاق القيمة المصرح بها على المأكل والمبيت . والطريقة طريفة وعملية ، وهي ان يتراسل شخصان ، أحدهما في انكلترا والآخر في سويسرا مثلاً ، دون ان يعرف أحدهما الآخر وذلك عن طريق بعض المعاهد والمجلات ، فيستضيف كل منهما الآخر في بلده وبيته مدة ثلاثة أسابيع لا يتكلف خلالها الضيف شيئاً على الاكل والنوم . وهكذا يتسنى له شراء ما يحتاج اليه من الحاجيات التي لا يجدها في بلده . وقد انتشرت هذه الطريقة حتى بين الفتيات الصغيرات لا سيما بين باريس ولندن .

واذا ما تحدثت الى «ابن البلد» الانكليزي هذا ، الفيته لا يزال طيب القلب الى درجة السذاجة ، دمث الاخلاق امينا مؤتمناً كبير الثقة بنفسه وبغيره ، لا يفهم السياسة ولا يريد ان يفهمها — ففي اعتقاده ان بضعة الرجال في «دوننغ ستريت» و «وايتهول» هم وحدهم الذين لهم حق تعاطي امور السياسة والتحدث بها — يقرأ كثيراً قراءات عرضية لا يحتفظ بالكثير من محتوياتها لان اكثرها من نوع القصص الصغيرة الخفيفة والروايات البوليسية . يعيش عيشة هادئة رزينة ، يلهو ويلعب ويطرب كذلك بهدوء ورزانة وبدون صخب او ضجة ، ولكنه لا يزال يعرف كيف يشرب ، هذا هو الانكليزي في بلده وجدته كما كان دون زيادة او نقصان .

مكتبة جامعة بيرزيت الرئيسية
Digitized by Birzeit University Library

١٣

المحتلون

شغلت صحف لندن الكبرى ، الصباحية منها والمسائية ، صفحاتها الاولى وبعناوين ضخمة على أعمدة اربعة طيلة شهر كامل ، بحادث تجابهه عاصمة الامبراطورية لاول مرة في تاريخها الطويل الحافل بالجسام من الاحداث . وقد اهتمت به دوائر البوليس والنيابة العامة والقضاء وانتهى بان عقدت من اجله الوزارة بأكملها عدة اجتماعات لتحدد موقفها وسياستها من هذا الحادث المتناهي في الغرابة والشذوذ .

وتفصيل الخبر ان بعض العائلات المرصوصة في مثآويها من قاطني الاحياء المجاورة الفقيرة ضاقت ذرعاً بازمة المساكن الناشئة عن الغارات والبولونيين وغيرها من مفاجئات الدهر ، فاحتلت فجأة ثكنة عسكرية اخلتها وحدة سرحت حديثاً . ولم يكتف المغتصبون بهذا الاحتلال ، وكان عنوة ، بل اخذوا يطالبون السلطات بالماء والكهرباء ، والمنشئآت الصحية . وبينما السلطات تدرس وتبحث في مشروعية هذا الاحتلال الغريب ، الذي لم يسبق لها ان ووجهت بمثله ، انتبه له بعض الخبثاء من الشيوعيين فاخذوا يحيكون المؤامرات وينظمون التشكيلات في الخفاء . وتنهض لندن ذات صباح من سباتها العميق ، فاذا بجيوش من هؤلاء المستوطنين المغتصبين قد احتلوا عشرات من الفنادق الخالية والعمارات الكبيرة ونقلوا اليها امتعتهم واثاثهم ، وذلك بحجة ان بعضهم لا سكن له بينما مساكن البعض الآخر لا يصلح لسكنى الحيوان بله الانسان اخاه الصغير .

Digitized by Birzeit University Library

وهنا ضج الكون البريطاني ، وقامت دنيا لندن وقعدت ، واخذت صحف المحافظين والاحرار تصيح وتولول وترسل الدمع السخين مدراراً على القانون القتيل وحقوق الملكية الصريعة ، كما اخذت تتنبأ بان هذا الحادث سيؤدي الى انهيار النظام الاجتماعي الحاضر . أما صحف العمال فاخذت تحرض الحكومة على منظمي هذا الزحف وتطالب اليها اتخاذ اجراءات سريعة لايقافه عند حده ، وللضرب على ايدي منظميه لان الغرض منه إسقاط الحكومة لا مساعدة البائسين .

وكانت الحكومة قد وضعت يدها على هذه العمارات إبان الحرب لاستعمالها في أغراضه ، ثم اخلتها حديثاً لتسلمها الى أصحابها الشرعيين . وشرع أصحابها في اتخاذ الاستعدادات لاصلاحها وترميمها كي ترجع صالحة للاستعمال كفنادق ومنازل ولكن جيوش المستوطنين المغتصبين احتلتها قبل ان يصل اليها عمال الاصلاح والترميم .

واتسع نطاق الحركة وكاد ان يودي الى عواقب وخيمة . وهنا تحركت الحكومة واخذت في إرسال رجالها من البوليس للمحافظة على ما لم يكتشفه المحتلون من العمارات الخالية . وكانت الخطوة الرسمية الثانية ان حاصر البوليس العمارات المحتلة لمنع الدخول والخروج . فاخذ الانصار وذوو الاغراض القاء رزم الزاد الى النوافذ . ثم امر وزير الصحة بقطع الماء والكهرباء عن البيوت ، فارسل لهم الانصار قساطل الماء ورزم الشموع . وهنا هرشت رؤوس القضاء واوحت بما كشف لها عنه هذا الهرش الى الحكومة التي قررت على اثره ان تبلغ المستوطنين انذارات خطية تمهلهم بها كذا أياماً يخرجون خلالها والا فستقدم المتلكئين منهم الى القضاء بتهم جزائية وحقوقية للاعتداء على ممتلكات الغير والاستيلاء عليها عنوة واغتصابا .

Digitized by Birzeit University Library

وهنا هاج المغتصبون وماجوا ، وارسلوا الوفود الى رئيس الوزارة والاسترحامات الى مليك البلاد ، قائلين بانه لا يجوز ارجاع هذه الممتلكات الى أصحابها ليصلحوا من شأنها ويؤجروها باجارات باهظة الى قوم اغنياء ، وهم لا مأوى لهم . وما على الحكومة الا ان تضع يدها على هذه العمارات وتقدمها لهم ، اي للمغتصبين ، ثم تعوض على أصحابها بما تيسر .

وقد انقضى شهر كامل على هذا الحادث الطريف وصياح المغتصبين يملأ الدنيا ويشغل الناس . وقد أصبحت حكايتهم موضوع تنكيت وتفكهة . فقد نشرت «الديلي اكسبرس» صورة كاريكاتورية لجماعة طاروا الى القمر فما كادوا يهبطون ارضه حتى لفت نظرهم بوليس قمري بحدة الى لوحة رسمية عليها اعلان بتوقيع حاكم الديار القمرية يحظر به على المستوطنين الغاصبين دخول بلاده . كما نشرت «الايفننغ نيوز» صورة كاريكاتورية اخرى لناسك هندي يجلس القرفصاء على لوحة مربعة رصعت بالمسامير الناتئة صعداً ، فيسئله صديق «لقد طال بك الجلوس يا صاح ، فما يبقيك حتى الآن ؟» فينظر اليه الناسك بدهشة واستغراب ويقول : «كيف اغادر مقعدي يا هذا ، والمغتصبون في كل حي ! » .

Digitized by Birzeit University Library

١٤

الدعاية الصامتة

ليس من شأن صاحب هذه الصفحات ان يتحرش بالسياسة ، فهو يعرف تماماً انه «ما دخلت السياسة شيئاً الا افسدته» ، ولذلك فقد اتخذ قراراً بينه وبين نفسه بالاجماع ، بانه لن يدع مجالاً لسوس هذه السياسة بان يتسرب الى صفحاته فيعمل فيها نخراً ويذرها حطاماً بالية ، ولذلك فهو ان تكلم عن الدعاية فانما يقصدها ، باوسع معانيها ، ومن النوع الايجابي الجزيل الفائدة والبعيد الاثر . وليست الدعاية محصورة في اتجاه واحد او موضوع ، فهناك الدعاية للعلم والادب ، وهناك الدعاية للصحة والاخلاق ، وهناك الدعاية للرياضة والسياحة ، وهلم جرا ودواليك .

ففي لندن اليوم رهط من السيدات العربيات هن من افضل ما عرفت في جميع الاقطار ، بعضهن من عقيلات رجال الهيئات السياسية العربية والبعض الآخر من عقيلات رجال المكتب العربي . ويقوم هذا الرهط النسوي بأجمل واوسع الدعايات وأبلغها اثراً في النفوس دون ان يتقصدنها او ينبسن ببنت شفه فيها . تراهن في شتى المجتمعات من عمومية وخصوصية ، ورسمية وغير رسمية ، فتحسبهن من صميم ارقى الطبقات الاجتماعية والارستقراطية ، وانهن لكذلك ! فان تحدثن فبعقل واتزان ، وان استقبلن فبلطف واينـاس ، وان لبسن فبحشمة واناقة ، ذكيات العقل والقلب ، مثقفات متمكنات من دقائق الايتيكيت والبروتوكول الاجتماعي الحديث المتبع بين طبقات النبلاء والعظماء في لندن وفي غير لندن تمكناً عجيباً . وهن ،

Digitized by Birzeit University Library

بالنظر الى اوضاع بعولتهن ، يدعون الى اعظم الاجتماعات ويختلطن بارقى الاوساط وبمجرد وجودهن في هذه الاوساط والامتزاج بعناصرها يقمن باجمل واوسع دعاية هادئة صامتة مثمرة للعرب والعروبة .

وهذه الدعاية الصامتة لسيداتنا الفضليات ، ذات شقين : سلبي وايجابي .

اما السلبي فالقضاء على تلك الصورة السخيفة المغلوطة التي لا تزال عالقة في رؤوس الكثيرين من اهل الغرب عن العرب والعروبة ، إذ لا يزال هؤلاء الكثيرون يتخيلون العرب كقوم ابل واماء وجلاليب فضفاضة ، قوم يحتفظ شيوخهم بعشرات النساء في القباء ، بينما يتطلى شبابهم صهوة خيولهم يجوبون بها افاق الصحاري والتلال حتى يلتقي احدهم بسائحة اميركية حسناء تاهت عن القافلة ، فيختطفها ويقفل بها الى خيمته . ويحيك مختلقوا هذه الصور حول مثل هذا الحادث من نسيج الخيال قصصاً غرامية مثيرة ، وما مختلقو هذه الصور الا التجار من الكتاب القصصيين والسينمائيين ، وما قصدهم من ذلك الا إثارة الخيال الروماتيكي في نفوس العذارى من هواة القصص ورواد السينما استدراراً للدرهم والدينار .

وقد رأينا منذ سنوات كتباً وأفلاماً مثل « عائشة » و « الشيخ » و « ابن الشيخ » لو رأها صبي الشارع لسخر منها او حسبها عن قوم يقطنون بلاد واق الواق .

وهؤلاء التجار من الكتاب يدركون تماماً بانهم يكذبون ويختلقون ، وان ما يصورونه بعيد كل البعد عن الحقيقة والواقع ، ولكن ما العمل وهم طلاب مال لا طلاب حقائق وادب .

تصور كاتباً تاجراً من هذا الطراز يدخل بيتاً عربياً فيرى في صالونه اثاثاً فاخراً من الطراز العربي الجميل ، او من طراز لويس الخامس عشر مثلاً ، وقد نسق

Digitized by Birzeit University Library

اجمل تنسيق وفي صدر القاعة بيانو هوفمان او بخشتاين جلست اليه فتاة البيت تعزف الحاناً رائعة من بيتهوفن او من شوبان . ثم ينتقل الى قاعة الاكل واذا بالصيني والكريستال واذا بالمائدة العصرية الفاخرة يتناول منها أكلاً شهياً فيه طعم ولذة . ثم يجيل بطرفه في المكتبة فيقع نظره على «اصل الانواع» لداروين ، وعلى «النسبة» لاينشتاين ، وعلى «الراسمالية» لكارل ماركس ، وعلى مؤلفات برنارد شو وغوته وفولتير وغيرهم . ويجلس للتحدث الى احد أفراد العائلة فيناقشه باحدث ما وصلت اليه الابحاث العلمية في موضوع الطاقة الذرية والجوهر الفرد . هذه كلها حقائق ، ولكن لا قيمة لها البتة في نظر هذا الكاتب التاجر فحي ما تعود ان يراه أبناء بلاده في أحسن بيوتاتهم وهو يبغي الاثارة ، وهذه صور ومشاهد قد تثير اهتماماً في نفوس علماء الاجتماع وأساتذة التاريخ ، ولكنها لا تثير اية عاطفة في نفس الجماهير حتى بنات المدارس ، لا في كتبه ولا في رواياته السينمائية الرخيصة ، اذن : «الى الصحراء والى الخيال ، حيث الاثارة وحيث المال» .

هذا هو الشق السلبي من الدعاية الصامتة التي تقوم بها سيداتنا ، وبه يمحون تلك الصور السخيفة المغلوطة من رؤوس الكثيرين من أبناء الغرب ، فتبقى تلك الرؤوس فارغة ، وعندها يتساءل أصحابها ، أصحاب الرؤوس الفارغة من الصور «اذن من هم العرب ؟» وهنا تتجلى شخصية معنوية من بين هؤلاء السيدات شخصية تمثلهن جميعاً تقول «نحن العرب ، انظر وتأمل !» . فينظر ويتأمل فاذا به يرى علم وادب ، وثقافة ومدنية ، وانوثة فاضلة كاملة تكشف عن رقة واحتشام وهيبة ووقار ، فيذهل ، ثم يحني رأسه احتراماً ويتمتم لنفسه قائلاً : ان امة تخرج مثل هذه العناصر الطيبة ، عناصر تفوق الكثير مما لدينا علماً ومعرفة ودماثة أخلاق وحسن تصرف لجديرة بان تتمتع بجميع ما وهبها الله من الحقوق الطبيعية كاملة غير منقوصة . وفي

Digitized by Birzeit University Library

هذا من الدعاية المثمرة ما تتضاءل دونه الملايين من الخطب والمقالات والروايات السينمائية وما اليها .

وهذا هو الشق الايجابي من الدعاية الصامتة التي تقوم به سيداتنا في المجتمعات دون ان يقصدنها او يشعرن بها إذ لا تتحدث سيدة من سيداتنا اولاء الى شخص اجنبي كبير في الاوساط الراقية او المجتمعات الرسمية او في بيتها الهادي الا وتترك في نفسه هذا الاثر البليغ وترسم في رأسه صورة دقيقة ثابتة عن العرب والعروبة ، وما وصلوا اليه وما يمكنهم ان يصلوا اليه ، فترسخ هذه الصورة الحقيقية في رأس صاحبها بعد ان تزيل منه معالم اختها الخيالية المغلوطة .

وهنا لا بد من الاشارة الى كلمة «تفوق» وتفسيرها :

لقد أصبح من الحقائق المسلم بصحتها علمياً بان العربي — وهذا يشمل اخته العربية قطعا — اذا ما سنحت له الفرص ويسرت له السبل للحصول على الكمية الكافية من الثقافة العامة والعلوم الحديثة ، يتفوق على اخيه الغربي بلا جدال . وليس في هذا التفوق شيء من الغرابة . فهو في ذلك يضم كما يعرفه الغربي الى ما يتمتع به هو من المزايا والكفاءات الفطرية فيصبح بمجموعه شخصاً ممتازاً على الآخر . ويتمتع العربي بشيء من الذكاء الفطري والدهاء الطبيعي قد لا تجدهما في غيره من الامم لا سيما الغربية منها .

ولذلك فمن المحقق ان العربي اذا ما تهذب وتثقف فانه يستطيع معالجة الجسام من الامور والاحداث والقيام باعظم الاعمال وادقها بمهارة قد لا يتمكن منها اخوه الغربي . واذا رأيت غير ذلك في بعض الاحيان ، فلذلك أسباب وعلل قد نقوم بدراستها درساً وافياً في غير هذه الصفحات .

Digitized by Birzeit University Library

١٥

وان يوماً في الريف

سئل كاتب اميركي كبيراً من الانكليز عن ما يعتبره من اهم مؤسساتهم القومية . فاجاب الانكليزي الكبير بكل هدوء «لنا خمس مؤسسات قومية كبرى وهي : الملك ، والبرلمان ، ونهر التاميز ، وجريدة التيمس » و «الويك اند» اي عطلة نهاية الاسبوع .

وقد اصبحت عطلة نهاية الاسبوع اليوم من المؤسسات القومية البريطانية المقدسة التي لا يمكن التغاضي عنها او التلاعب بها ككثير من الامور في هذه الحياة الدنيا . وتختلف هذه العطلة زماناً ومكاناً باختلاف أصحابها . فالمسئلة لا تخرج عن كونها مسئلة نسبية على رأي صاحبنا اينشتاين . غير ان المتعارف عليه بين جمهرة الامة هي انها تبتدئ عصر السبت وتنتهي صباح الاثنين من كل اسبوع طبعاً ، وتمتد في بعض الاحوال ، من ظهر الجمعة الى ظهر الاثنين ، وقد عرف ان نطاقها اتسع في بعض الحالات فامتدت من عصر الخميس الى عصر الثلاثاء ، إذ لا بد للمرء ان يلقي نظرة عابرة على أعماله يوماً في الاسبوع على الاقل وكفى الله الاثرياء شر العمل ، وعلى كل فكل ما يستطيع المرء ان يحمله تحت ابطه مترين من البفت ، هذا اذا وجدوا له البفت ، والا ، ففي المالطي البركه ، وما المالطي على انسان بعزيز .

ويختلف المكان باختلاف الزمان وأصحاب الزمان . فالفقراء والعمال وموظفو الدرجة الثانية يهرعون الى الحدائق والمتنزهات العامة في قلب المدينة وحواليها

Digitized by Birzeit University Library

يتأبطون سنادشهم (جمع سندويش) وهي ما يسميه المتحذلقون المتفيهقون من أئمة اللغة القدماء جداً، بالشاطر والمشطور وبينهما الكامخ، واظنهم يقصدون بالشاطر والمشطور قطع الخبز الرقيق. اما الكامخ فيتألف عادة من اللحم المقدد في أيام الخير ومن الجبن البلدي في هذه الايام، وقد رأيت منها ما هو محشو بنوع من الحشائش الناعمة تشبه البقدونس فقط — قلت يتأبطون سنادشهم وترامبسهم، وهذه أيضاً جمع «ترموس» وهي اناء عامودي الشكل يتكون من ماسورة في جوفها قارورة تحتفظ بحرارة السوائل. وتكون هذه السوائل إما شاياً ساخناً او قهوة مايعة دون سكر طبعاً. هذه وتلك هما زوادة هذه الطبقة من القوم يلتهمونها هنيئاً وقد افترشوا البطحاء السندسية، وهكذا يقضون اليوم باكمله بعد ان يكونوا قد استنشقوا اكبر كمية ممكنة من الهواء النقي. وقد قال برنارد شو قديماً «ليس الفقر بعار، ولكنه، قاتله الله، مزعج».

ويأتي بعدهم طبقة التجار وأصحاب المصانع الصغيرة وكبار الموظفين في الحكومة والمصارف. ويمتلك اكثر أفراد هذه الطبقة سيارات صغيرة يذهبون بها صحبة عائلاتهم الى بقعة جميلة من الريف الانكليزي الخلاب، او الى بلدة ساحلية على احد الشواطئ للاستحمام او الاستجمام.

اما أبناء الطبقة العليا الذين يتمرغون في أحضان النعيم والرفاهية كيفما كانوا واينما حلوا، فقطار سريع الى باريس او يخت يجوبون به عرض البحار، او طائرة يقفزون بها الى الريفييرا حيث الشمبانيا الافرنسية المعتقة والكافيار الروسي الفاخر.

وقد كان هؤلاء فيما مضى من سالف الايام ينتمون الى طبقة اللوردات والنبلاء وكبار الاغنياء من أصحاب الالقاب اللامعة والممتلكات الشاسعة. اما اليوم، فقد تبدلت الارض غير الارض وتبدل معها حال من عليها. فقد انسحب رجال الالقاب

Digitized by Birzeit University Library

الضخمة القديمة من دنيا البذخ والرفاهية واحتل مكانهم فيها رجال الصناعات الحديثة بشمول احدث انقلاباً اجتماعياً طريفاً في وجه تقليدي من اوجه الحياة الانكليزية .

وعلة ذلك ، ان تراكم الضرائب الضخمة ، لا سيما ضريبة الدخل المتصاعدة ، وضريبة الايلولة ، ارهق الأثرياء وذوي الاملاك وانزل الثروة الفردية وقوة الانفاق الفردي بينهم الى الحد الادنى . فمهما بلغ الدخل السنوي الاساسي من مئات الآلاف لأحدهم . التهمت ضريبة الدخل المتصاعدة القسم الاعظم منها تاركة له بضعة آلاف قليلة حقيرة لا تشبع جائعاً ولا تكسو عرياناً . وقد اضطر الكثيرون منهم الى بيع أراضيهم وعقاراتهم لعدم استطاعتهم صيانتها والمحافظة عليها ومواجهة الضرائب . كما ان البعض منهم اضطر الى بيع قصورهم الريفية الكبيرة او مغادرتها والسكن في بيوت صغيرة في المدن لعدم استطاعتهم تحمل نفقاتها الباهظة لا سيما اجور الخدم العديدين هذا اذا استطاعوا الحصول على اليد العاملة للقيام بالخدمات المتعددة التي يتطلبها السكن في القصور الكبيرة المحاطة بالحدائق الغناء .

اما رجال الصناعة الحديثة فلا يزالون يقطنون شققاً متواضعة في أحياء العاصمة او بيوتاً صغيرة في الارياف المجاورة وكلاها قليل النفقات . وهؤلاء عادة لا أملاك لهم لانهم محدثون في عالم الثروة والمجتمعات الراقية . وهم يتحاشون الضرائب ، لا سيما ضريبة الدخل ، بطرق حديثة فنية لا تخلو من طرافة . فيحدد المدير منهم مثلا لنفسه راتباً صغيراً متواضعاً ، لنقل مئة جنيه على سبيل المثال . وهو راتب كما ترى اقل من القليل . ولكنه يربط بهذا الراتب مخصصات عديدة كسيارة وسائق ومنزل سكن ونفقات ضخمة للتشريفات والضيافات لمصلحة المؤسسة طبعاً ، واجازة عمل مدة شهرين في اميركا او سويسرا مثلاً ، كل هذه الامور على حساب المؤسسة

Digitized by Birzeit University Library

الصناعية وكلها لا علاقة لها البتة في موضوع ضريبة الدخل او غيرها من الضرائب . وهناك ما يشبه هذه الحالة الشيء الكثير في روسيا اليوم . فالرفيق السشينسكي مثلا راتبه الشهري عشرون جنيهاً فقط لا غير ، اما السيارة الضخمة والمنزل الفخم والخدم والحشم والالواح في الاوبرا والفوتكا والكافيار فأشياء تقدمها الدولة ولا علاقة لها في الدخل والراتب لان صاحبها عامل فقير لا يملك من حطام الدنيا سوى هذه الجنيهات العشرين التي هي راتبة الشهري ينفقها بكل تواضع على لفافاته من التبغ الروسي الفاخر . وزيارة واحدة للسفارة الروسية في لندن تنسى تلميذ التاريخ قصور البوربون وآل عثمان .

ولكن ما لنا قد خرجنا عن حديث «عطلة الاسبوع» موضوع هذا الفصل . فلنرجع اليه .

والحق ان عطلة نهاية الاسبوع ضرورية جداً ومفيدة لمن يعمل في هذه الحياة وذلك لاراحة الأعصاب وتجديد النشاط لا سيما للانكليز فقد خرجوا من هذه الحرب امة تعبانة باعصابها شيء من الانزعاج لما عانوه من الاهوال خلال سنواتها الست وقد أصبحت هذه العطلة هنا اليوم من ضروريات الحياة لا من كمالياتها ، وانتشرت بشمول تام بحيث يتوقف دولاب الاعمال في جميع مرافق الحياة فلا عمل ولا تجارة ، ولا مصارف ولا دوائر حكومية . وكل ما تجده بعض المقاهي والمطاعم ودور السينما الصغيرة .

من اقوال الانكليز «اذا كنت في روما ، فاصنع كما يصنع الرومان» ، ومن اقوال العرب «اذا نزلت في قوم فاحلب في انائهم» . فاتباعاً لهذا القول وذاك ، حمل صاحبنا امتعته تحت ابطه وهرع لتمضية نهاية الاسبوع في بلدة ريفية جذابة تقع على ضفاف نهر التاميز .

Digitized by Birzeit University Library

والحق ان الريف الانكليزي من اجمل أرياف العالم ان لم يكن أجملها قاطبة . وقد وافق على هذا الرأي كل من تجولت واياه بالريف البريطاني من الشخصيات العربية في هذا البلد . ومما احتفظ لهذا الريف بجماله النادر الساحر ان يد الانسان لم تفسد فيه جمال الطبيعة البوهيمي . فكيفما سرت واينما حللت تجد الماء والخضرة والوجه الحسن بكثرة وبكثرة هائلة . والريفيات الانكليزيات حسان جداً تتدفق من وجوههن الحياة والنضارة والنشاط وذلك الصفاء العجيب في لون البشرة . ومن الخطأ الفادح ان يحكم المرء على الجمال الانكليزي بما يراه منهن بالقاهرة او بغداد او يافا . فالمرأة الانكليزية ، ككثير من أخواتها من نساء العناصر التوتونية والاسكندنافية والانكلوسكسونية اذا ما خرجت من بلدها وذهبت لتقطن في بلد من بلدان المناطق الحارة ذبلت وكلح لونها تماماً كما تذبل الوردة الجميلة اذا ما اقتطفتها والقيت بها تحت شمس الصحراء المحرقة .

ومما يزيد في جمال الريف البريطاني تنوعه الرائع . ففي الجنوب سهول وشواطئ ، وفي الوسط هضاب وتلال واودية ، وفي الشمال جبال وبحيرات متسلسلة تكسوها كلها مروج خضراء سندسية كأنك تطأ أرضاً مكسوة بالسجاد العجمي الفاخر ، والاشجار الوارفة الظلال التي لا تفارقها خضرتها يوماً في السنة ، يزيدها اعتدال الطقس ورطوبته بهاء ونضارة . ان في الريف الانكليزي بقعاً قدت من جنات النعيم . وان يوماً في هذا الريف لخير من خمسين سنة في دخان العاصمة وضبابها الكثيف ان سمح لنا أديبنا الكبير باستعارة قوله المأثور .

Digitized by Birzeit University Library

١٦

شكسبير بين الانكليز وعاصفة هوجاء

ظهرت الصحف صباح يوم وفي بعضها صور فوتوغرافية لجمهور كبير من الرجال والنساء ، يبلغ عددهم الثلاثمئة ، ينتظرون ، طبق نظام الصف ، خارج مسرح « الاولد فيك » ليتمكنوا من الحصول على مقاعد في ذلك الملهى القديم لمشاهدة إحدى مسرحيات شكسبير وكانت « الملك لير » . وأضافت الصحف على الخبر ، بانهم انتظروا ستاً وثلاثين ساعة متتابعة ، وان بعضهم اتى بالمقاعد الطويلة ليستلقي عليها وببعض الاغطية والمأكولات الناشفة .

الى هنا والخبر بسيط مع غرابته الشديدة . ولكنك تجد في الصحف نفسها ، وعلى عرض ثمانية اعمدة من صفحاتها الاولى عناوين ضخمة تحمل اليك أنباء مزعجة مروعة تنبؤك بان في تلك الليلة نفسها اجتاحت الجزيرة البريطانية من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب عاصفة هوجاء لم تشهد لها البلاد مثيلاً في شدتها واتساع مداها وجسيم ما احدثته من الخسائر في الارواح والاموال . فقد اقتلعت الاشجار من جذورها ، واتلفت المزروعات الموسمية ، وتهدمت بيوت عديدة وازهقت ارواح كثيرة في البر والبحر والجو ، وغرقت بعض سفن الصيد وقذف ببعضها الآخر الى البر ، وفي تلك الليلة نفسها أيضاً بلغت البرودة درجات تحت الصفر ، فجمد بعض البحيرات الصغيرة ، كما فاضت بعض الانهر واكتسحت مياهها مدناً صغيرة اغرقت شوارعها وميادينها وهدمت القديم من بيوتها فاصبح المئات من العائلات الفقيرة

Digitized by Birzeit University Library

دون مأوى . وقد توجت هذه العاصفة العجيبة أعمالها بان قصمت ظهر باخرة اميركية كبيرة في مياه خليج ليفربول فشطرتها شطرين متساويين .

وقد ظهرت في الصفحات الاولى من صحف صباح الاحد في ١٩٤٦/٩/٢٢ صور جوية رائعة ، قبل الشطر وبعده لهذه السفينة البالغة حمولتها ثمانية آلاف طن .

خلال مثل هذه العاصفة انتظر ثلاثمئة انكليزي وانكليزية الليل بطوله على قارعة الطريق وفي الهواء الطلق ليتمكنوا من مشاهدة رواية تمثيلية . ولو كان الحادث تتويج ملك جديد مثلاً او شنق رئيس وزارة ، او محاكمة رئيس اساقفة لكان في الامر ما يبرر هذا الانتظار لان حب الاطلاع غريزة كامنة في النفوس ، وهذه امور قد لا تحدث الا مرة في العمر . اما والمسئلة مسئلة رواية ! واية رواية ؟ رواية مضى عليها ثلاثمئة سنة وهي تمثل كل شهر تقريباً في مسرح ما ، يحفظ كلامها عن ظهر قلب ، صبية المدارس الابتدائية . والحق ، كما قال العالم التركي ، « هذا شيء لا نفهمه لا نحن ولا انتم » .

مع ان التحليل في ذاته بسيط . امامنا في المشهد عاصفة ، وزمهرير ، وريح صرصر ، وبرد قاتل ، ولكن لا تنس ان في الطرف الثاني يوجد انكليز ، وقد صدق من قال «اذا كانت البرودة قاتلة ، فالبرادة اقتل واشد تنكيلا» . وكل ما في الامر ان هذه الامة عقدت النية على ان تعيش ولذلك يصعب عليها ان تموت .

Digitized by Birzeit University Library

١٧

روح الجماعة عند الانكليز

لكل امة من الامم ، كما لكل فرد من بني البشر ، ميزات وخصائص تميزها عن غيرها من امم الارض . ومن ميزات الامة الانكليزية تغلغل «روح الجماعة» في جميع اوساطها وطبقاتها على شكل يدعو الى الدهشة والاعجاب . والمقصود بروح الجماعة ، هو ان ينسى الفرد نفسه ومصلحته كل النسيان عندما يرى شخصاً آخر او جماعة او هيئة في حاجة الى معونة او مؤازرة فيبذل غاية جهده في سبيل هذه المعونة او تلك المؤازرة . وينطبق ذلك على الاعمال الخيرية ، او الرياضية ، او السياسية ، او الثقافية وغيرها من اوجه الحياة اليومية . فالانكليزي لا يؤمن «بالفردية» . ولا يعتقد بانه وحدة مستقلة في هذا الكون يجب ان يبذل كل مجهوداته في سبيلها وان يسخر لها الآخرين . وتتجلى هذه الميزة باروع مظاهرها عندما تنتاب مجموع الامة محنة او تصاب بضنك . وشعارها في ذلك كله «الفرد في خدمة المجموع ، والجميع في خدمة الفرد» .

وقد وقعت خلال اسبوع واحد من هذا الشهر (اكتوبر سنة ١٩٤٦) حادثتان لهما دلالتهما في هذا المضمار .

الاولى : جندي نفر ينتمي الى إحدى الوحدات البريطانية المعسكرة في مكان ما جنوبي فلسطين يتناول ورقة في فترة ضجر ويكتب الى جريدة صغيرة في بلدته في غربي انكلترة يطلب منها ان ترسل اليه بعض المجلات او الكتب ليسد بقراءتها

Digitized by Birzeit University Library

اوقات فراغه . وبعد ثلاثة اشهر من نشر هذا الكتاب يضطر الجندي نفسه ان ينشر نداء في الجريدة نفسها يرجو فيها اهل النخوة ان يتوقفوا عن ارسال الكتب والمجلات لان خيمته لم تعد تتسع لآلاف الكتب التي وصلته . وان من اراد منهم ارسال شيء ، فليرسله الى مستشفيات الجيش في منطقة غزه من اعمال فلسطين . وفعلاً وجهت الكتب الى المستشفيات فلم يبق مريض فيها الا ولديه الشيء الكثير منها يتمتع بقراءتها خلال اقامته في مستشفاه .

الثانية : مرضت فتاة صغيرة تبلغ الحادية عشرة في قرية من قرى شمال انكلترا فقرر الطبيب ان علاجها الوحيد عصير البرتقال تتناوله خلال أسابيع خمسة . وعند نهاية الاسبوع الثالث كانت المريضة قد استهلكت كل ما استطاع ذووها الحصول عليه من هذه الفاكهة القيمة النادرة في تلك البلاد . فأذاع ابوها يطلب العون . وهنا يتناول هذا الأب الكلام فيقول : «ولم يمض يومان على اذاعتي هذه ، حتى أصبح بيتي وكأنني من تجار الجملة في هذه الفاكهة ، إذ وصلنا من مجهولين كميات من البرتقال ما لو اكلت منه ابنتي طول حياتها ، لما استهلكت نصفه . فاختزنا حاجتنا ، وارسلنا الباقي الى المجلس البلدي الذي تولى نقله وتوزيعه الى المستشفيات» .

هذا مع العلم بان البرتقال من المواد التي يصعب ارسالها في البريد ، وانه غالي الثمن جداً ، وانه يوزع بواسطة السلطات على من هم في حاجة اليه من الاطفال والمرضى ، ولا يستطيع الانسان الحصول عليه في الاسواق الحرة .

ومن الاعتقادات العالمية ان رجال «سكوتلاند يارد» اقدر بوليس العالم في اكتشاف الجرائم . وينسب بعض كتاب القصص البوليسية اليهم أعمالاً وحوادث تتضاءل أمامها المعجزات . والحقيقة ان في الامر شيئاً من المبالغة . لا شك في ان

Digitized by Birzeit University Library

رجال التحقيق في اسكوتلاند يارد يقومون بواجباتهم خير قيام بمهارة وبراعة . ولكن غيرهم أيضاً من بوليس بعض البلدان الاخرى يفعل ذلك . وقد قام البوليس المصري في السنوات القليلة الماضية باكتشاف جرائم اعترف له بالتفوق والمهارة فيها الغريب قبل القريب . والمسئلة هنا هو ان الانكليز في بلادهم امة «انسانية» يمقتون الجرائم ويقدسون النظام والقانون . والذي يحدث هو انه عندما ترتكب جريمة قتل مثلاً ، ينقلب كل انكليزي وانكليزية الى «بوليس» ويبذل كل جهد في سبيل مساعدة رجال السلطة فلا ينقضي على ارتكاب الجريمة اسبوع الا والاغلال في عنق القاتل . فيهلل العالم بان اسكوتلاند يارد تأتي بالمعجزات . هذا ما يحدث هنا ، اما في بعض البلدان الاخرى من هذا الكون ، فيعتقد الناس ان من واجباتهم تضليل رجال السلطة عند وقوع الجرائم .

هذه أمثلة صغيرة على انتشار روح الجماعة وتغلغلها في نفوس الانكليز . وقد يكون للفطرة اصبع في ذلك ، ولكن الذي اعتقده ان في الامر يد كبرى للاخلاق والتربية .

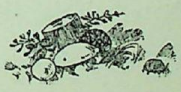

Digitized by Birzeit University Library

١٨

مجلس اللوردات

— هل يأمر سيدي اللورد بتناول الشاي ؟

— من فضلك ، ولاثنين

— امرك ميلورد .

وانصرفت بانحناءة وقورة . كانت شقراء فتية ، زاد شقرتها بهاء فستانها الحريري الاسود المزركش بالدانتيلا البيضاء . وكانت إحدى وصيفات قاعة الشاي في مجلس اللوردات . ويبلغ جليسي ومضيفي — وكان اللورد الزيهو — السابعة والسبعين وكان يشرح لي ببطء تاريخ الصور والتماثيل التي تزين جوانب القاعة عندما احضرت فتاتنا الشاي وملحقاته . وهنا انتقلنا فجأة من مجلس اللوردات الى مقهى صغير وفي الحي الشرقي ، وكان وسيط هذا الانتقال ، صينية الشاي ، إذ ان تطبيق نظام الحصر والتوزيع في بريطانيا يبتدئ من قصر باكينغهام . قال مضيفي «انتم الشرقيون تحبون الشاي حلوا ، فخذ انت جميع ما في الاناء من السكر» . وكان بودي التأدب ورد المجاملة ، ولكن نظرة واحدة الى «جميع ما في الاناء» جعلتني اعدل وامتثل . اما هو ، فاخرج من جيبه انبوباً فضياً صغيراً ، واعتاض عن السكر بالسكرين . ثم نهضنا ودفع مضيفي ثمن الشاي ، شلناً وثلاث نحاسات ، وكان مع الشاي كعكة واحدة وشريحتان من الخبز المطلي بالزبدة للشخص الواحد ، وذلك هو « سعر السوق » في المحطات والارصفة . وكانت جلستنا في هذه القاعة بما فيها

Digitized by Birzeit University Library

ومن فيها ، مزيجاً منسجماً من عظمة الماضي وارستقراطيته ، وتضييقات الحاضر وديموقراطيته . واصطحبني مضيفي الى شرفة الضيوف الممتازين — هكذا تسمى الشرفة — وقال «قد لا تحتمل البقاء طويلاً ، وباستطاعتك مغادرة القاعة حينما تشاء» . واردف معتذراً ، «اما انا فعلي ان اغادر مبكراً ، فقد تواعدت مع بعض الزملاء على زيارة برنارد شو ، فهو صديق قديم وقد حضر الليلة الى لندن من بيته الريفي» ، ثم ضحك وتمتم وهو يهز رأسه «وبرنارد شو كما تعلم شيخ عجوز ويهمنا امره» . واذا رجعت الى مستهل هذا الفصل ايها القارئ اللبيب ، عرفت بان محدثي لم يكن في الثامنة عشرة ، بل تجاوز السابعة والسبعين ، ولكن الظاهر ان نظرية النسبية لصاحبنا اينشتاين لا تزال سارية المفعول .

ولم احتمل البقاء طويلاً كما تنبأ صاحبي . ولكنني شهدت جلسة استعرض التاريخ نفسه خلالها أمامي بالزخرف والاثاث ، والاعمار والافكار . ويبلغ أعضاء مجلس اللوردات اليوم الثامنة ، وهو اكبر عدد بلغه في تاريخه . وعدد الاعضاء في هذا المجلس غير محدود ، بعكس مجلس العموم فعضويته محصورة بين ستمئة واربعين مقعداً .

والسبب في وصول عدد اللوردات الى هذا الرقم الهائل ، هو الحرب ووزارة العمال . اما الحرب ، فلانها تتيح الفرص للكثيرين للقيام باعمال باهرة في خدمة وطنهم ومليكهم ، فينعم عليهم بالالقاب الرفيعة فيصبحون لوردات بحكم اللقب والاعمال ، ويتفوق في هذا المضمار العسكريون من امثال مونتغومري ، والكسندر ، وويلسون ، واوكنلك وغيرهم كثيرون . واما وزارة العمال فلانها تريد ان يكون في المجلس من يمثل وجهة نظرها ، فتغدق بالالقاب على بعض رجالها وتخلق منهم عمالاً لوردات ، ويشترك في هذا المجلس كاعضاء بحكم الوظيفة رجال الدين من درجة رئيس أساقفة فما فوق . ويشتركون في الجلسات بالبستهم الكهنوتية ، وتلجأ بعض

Digitized by Birzeit University Library

الحكومات الى الانعام على بعض كبار السياسيين بالالقاب حتى ينتقلوا الى مجلس اللوردات فتتخلص منهم من مجلس العموم ؛ والانعام باللقب هنا ، وضع سياسي على الرف ، ولذلك رفض صاحبنا تشرشل اضخم القاب الشرف عندما حاولت الوزارة الحالية الانعام بها عليه لأنه لا يريد ان يحال على التقاعد من ميدان السياسة .

هذا عددهم ، اما عدد الذين يحضر منهم الجلسات العادية فمسئلة ثانية ، إذ انه في هذه الحالة يكون حول الخمسين . وهذا العدد قابل للنقصان لا للزيادة الا في حالات استثنائية مثل اعلان حرب ، او ابرام معاهدة ، او المناداة بملك جديد . وكانت جلستنا من هذا الطراز ، ثمانية واربعون عضواً فقط لا غير وبينهم المحافظون والاحرار والعمال والاساقفة والمستقلون والوارثون .

كان موضوع المناقشة في هذه الجلسة «تخمين الفلاحة الجبلية في جنوبي اسكتلندا» . وكان المتكلم عندما دخلت ، احد قدماء اللوردات من أصحاب الاملاك الشاسعة في اسكوتلاندا ، وكان ينتقد الحكومة لفرضها تخميناً جديداً يضر بمصلحة الملاكين ، وبين يديه رزمة من القوانين واللوائح يستشهد ببعض فقراتها . وطال الحديث ، وكان اللورد عجوزاً يتكلم بصوت خافت ، وكان بعض اللوردات أثناء ذلك يخرجون لتناول الشاي ثم يرجعون . ورأيت في ايدي بعضهم آلات صغيرة تشبه تلك التي تلتقط صوراً متحركة فظننت انهم من غواة السينما او التصوير الليلي ، ولكن ما كاد الحديث يبدأ حتى تبددت ظنوني ، إذ سحب هؤلاء من آلاتهم صمامات صغيرة بحجم البندقة ادخلوها في آذانهم فتيقنت آنذاك بان المسئلة ليست تصوير سينمائي بل للسمع . ولا يغربن عن بالك بان نظير مجلس اللوردات في البلدان الاخرى مجلس الشيوخ واعضاءه عادة ليسوا من الشبان اليفع . وقد طال الحديث وازداد صوت الشيخ خفوتاً ، وهجم النعاس على بعضهم فرحبوا به ، وكاد يهاجم المحدث نفسه ، وهنا تذكرت حكاية رواها الدوق اوف ديفونشير في مذكراته عن

Digitized by Birzeit University Library

مجلس اللوردات وكان عضواً فيه ، يقول فيها «وحلمت ذات يوم بانني القي خطاباً في المجلس ، وصحوت من حلمي فوجدت أني حقيقة كنت اخطب» .

وتولاني النعاس فخفت ان اقع على ارض المجلس الخشبية فاحدث ضجة تزعج النيام ، ولذلك نهضت وخرجت من القاعة فاصطحبني الحاجب ليرافقني الى الباب . والحاجب من اطرف من في هذا المجلس ، شاب طويل اشقر عريض الصدر مفتول العضل انيق جداً . يلبس فراكا احمر وصدرية بيضاء وسروالاً اسود ضيقاً . يتدلى على صدره الشعار البريطاني من الذهب معلقاً بسلسلة ذهبية عريضة . أما الشعار فبحجم الكف ويرتكز على رأس المعدة . وقد طبع هذا الشعار بالذهب على جميع مقاعد المجلس منها مقاعد الحجاب والحرس من الشرطة ، وكلها من الجلد الاحمر القاني

وتتجلى عظمة هذا المجلس بابهى مظاهره الارستقراطية يوم افتتاح البرلمان ، اذ يتولى ذلك الملك بنفسه تصحبه الملكة وهما بالتـــاج وحلل التتويج يحوط بهما اللوردات ببزهم الرسمية التقليدية المذهبة وسيوفهم المرصعة بالاحجار الكريمة واوسمتهم البراقة تصحبهم « اللوادي » عقيلاتهم وقد زانت كل منهم رأسها بتاج يدعى « تيارا » يصغر ويكبر ، ويضيق ويتسع حسب لقب البعل الكريم . صحيح ان كلاً منهم يحمل لقب لورد ولكنهم يختلفون في درجات النبل والشرف فبينهم البارون ، والفيكونت ، والكونت ، والمركيز والدوق ، وهو ارفع الدرجات ، ويحمله اخوة الملك ، (ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات) . ويؤلف مجلس اللوردات جناحاً من عمارة البرلمان البريطاني وتدعى «وستمينستر» ويقع في بقعة من اجمل بقاع لندن وعلى ضفة نهر التاميز بين جسري وستمينستر ولندن . وله شرفة تاريخية مشهورة ومتسعة جداً تطل على النهر مباشرة ويتناول فيها اللوردات الشاي خلال ثلاثة ايام الصيف في العاصمة . ومن اراد الاطلاع على تاريخ أبي البرلمانات ونشأتها وتطوراتها فليقرأ المقال الممتع عنها في « الانسيكلوبيديا بريتانيكا » .

Digitized by Birzeit University Library

١٩

مدام توسو

في بقعه هادئة من أجمل احياء لندن الارستقراطية ، يقع هذا المتحف العجيب الفريد ، ويعرف بمتحف الشمع . وسبب هذه التسمية انك تستعرض فيه اشهر شخصيات التاريخ من الملوك القاهرين الى كبار المجرمين العالميين وما بينهما من وزراء وكرادلة وقواد ورابنة ، وادباء وفلاسفة ، ورياضيين ومخترعين ، وكواكب سينما وهزليين ، وجوابي آفاق ومكتسمين ، وكلهم بالحجم الطبيعي وبدقة من الصنع يكاد الواحد منهم يتحدث اليك لولا انه من الشمع .

قد يلاحظ القارئ الكريم بان كاتب هذه الصفحات قد تحاشى عمداً الكتابة عن المتاحف والمعاهد والاندية من مثل المتحف البريطاني الهائل وعشرات المتاحف الحربية والعلمية وجنينة الحيوانات وغيرها . فهذه من المؤسسات القومية الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل وقد كتب عنها عشرات المجلدات الضخمة ، ولذلك فهي لا تقع ضمن نطاق الغاية المتوخاة من هذا الكتيب ، اما هذا المتحف الطريف فليس كذلك ، اذ انه دائم التغير والتبدل مع الزمن والظروف ، فهو دوماً في دور التطور والانتقال من حال الى حال . فان كان المحافظون في الحكم اخذوا مكان الصدر من القاعة الكبرى ، فاذا ما عبست في وجوههم صناديق الانتخاب ، وضعوا على الرف واستبدلوا بالعمل والعمال ووزراء العامة .

ومدام توسو من اكثر متاحف لندن زوارا ومن اقربهم الى نفوس الرواد

Digitized by Birzeit University Library

من اهليين ونزلاء . وقد اتخذ اسمه هذا من اسم مؤسسته ، وهي سيدة سويسرية الاصل قضت السنين النضرة من حياتها بين قصور الملوك وغياهب السجون ، لها حكاية طريفة لا بأس من روايتها ببضعة اسطر لما فيها من عبر التاريخ التي ينبؤنا بعضها بان نزوات السياسة وبطش السياسيين تتسرب حتى الى مخادع الفنانين المثاليين فيعمل بهم تعذيباً وتنكيلا .

في اواسط القرن الثامن عشر ظهر في مدينة برن من أعمال سويسره رجل يدعى كريستوفر كورتيوس برع في فن تكوين الاشخاص والاشياء من الشمع الاحمر . وقد سمع به البرنس دى كونتى فدعاه الى فرنسا فهجر الرجل بلدته واستوطن باريس وما عتم ان اصبح محل عمله ندوة تجتمع بها الشخصيات البارزة في حياة باريس تلك الايام وبينهم فولتير ، وديدرو ، وجان جاك روسو ، وميرابو . وفي هذه الندوة نجد الفتاة ماري غريهولتز ، ابنة شقيقة المثال ، والتي قدر لها ان تعرف في التاريخ باسم مدام توسو بعد زواجها من رجل افرنسي .

تحس كورتيوس النبوغ في عيني قريبته الفتية ، فعلمها فنه ، واذ بها تتفوق عليه وتبزه في برهة وجيزة فيقول عنها احد الكتاب « ان في انامليها المرنة من السحر الرائع ما يذهل العقول ويستولي على مكامن النفوس » . وكانت صناعة نحت التماثيل من الشمع بدعة الزمن في تلك الايام فاستدعتها مدام اليزابث ، شقيقة لويس السادس عشر ، لتقيم معها في قصر فرساي وتدرب سيدات القصر على فنها النادر . وكانت تسع سنوات طوال قضتها مدام توسو في القصور بين الملوك .

وتجمعت غيوم العاصفة في سماء فرنسا تنذر بالشر المستطير في كل لحظة ، وشعر كورتيوس بقرب هبوب العاصفة فاستدعى قريبته من وسط القصر الخطر لتقيم في منزله آمنة مطمئنة . وهنا شهدت هذه الفتاة الفنانة الشرارات الاولى من

Digitized by Birzeit University Library

لهب الثورة الجارفة . ففي اليوم الثاني عشر من من تموز سنة ١٧٨٩ طرق باب بيت كورتيوس ثلة هائجة من الغوغاء تطلب اليه صنع تماثيل لأبطالهم ليحملوها في مظاهراتهم الصاخبة في شوارع باريس ، وكانت لحظات تاريخية في حياة فتاتنا . ولم يتفرق المتظاهرون الا بعد ان اريقت الدماء . ولما بلغ الخبر مسامع لويس السادس عشر صاح في وجه وزرائه « اتمرد هذا ؟ » فاجابه كبيرهم بهدوء « بل هي الثورة يا مولاي ! » وبعد يومين اثنين دكت ابواب الباستيل .

واختبرت فتاتنا تقلبات الايام ، وتعرضت لحوادث مفجعة قدر لها ان تصاب بها خلال السنوات المليئة بالمآسي والآلام التي تلت هذا الانفجار . فقد نضجت الاضطرابات وتبلورت ثم تحولت الى ثورة مخيفة ما فتئت ان انقلبت الى عهد من الارهاب الفتاك . وكان الارهاب في حاجة الى تماثيل من ضحاياه ، وهل غير انامل ماري غرينهولتز لهذه المهمة الخطيرة ؟ واجبرت هذه الفتاة الفنانة الرقيقة والدموع ترقرق في عينيها ، على اخذ طبعات لرؤوس مفصولة عن أجسامها كي تصنع منها تماثيل من الشمع ، رؤوس كان أصحابها من اعز الاعزاء على قلبها ، رجال ونساء قضت في رفقتهم أعذب سني حياتها بين قاعات فرساي وحدائقها الغناء ، وقد حزت في نفسها هذه الذكريات المؤلمة طيلة ما تبقى من سني حياتها .

وتتقلب الايام والايام دول ، وتتطور الثورة ، فيذهب مولعوها وقوداً لها ، فيؤتى الى فتاتنا برؤوسهم بعد فصلها بدقائق معدودة لتصنع لها التماثيل ، وتلقي بنظرة عليها فاذا بين هذه الرؤوس التي لا يزال الدم الساخن يقطر منها ، رأس مارت «صديق الشعب» ورأس شارلوت كوداي التي اغتالته ، ورأس روبسبير وغيرهم . وهنا تشعر فتاتنا بلذة نفسية خفية يشوبها آلام وتحيط بها الاحزان . ولم تنج فتاتنا من الشر المنتشر الشامل ، فالقيت في غياهب السجن ، وهي ربيبة القصور ،

Digitized by Birzeit University Library

وكانت شريكة آلامها واضطهادها في الزنزانة جوزفين دى بوهارنا ، التي اصبحت بعد قليل الامبراطورة جوزفين سيدة قصر نابليون وقلبه .

وخمدت الثورة ، وهدأت نوباتها الجنونية ، ومات الخال فتزوجت الفتاة من فرنسوا توسو سنة ١٨٩٥ واذا بنا نراها ذات صباح في قصر التويليري وقد دعتها رفيقتها في السجن الامبراطورة جوزفين لتصنع لها تمثالاً لرأس زوجها الامبراطور نابليون بونابرت . وقدرت الفنانة ما ينتظرها في هذا القصر من المجد والسؤدد ولكنها آثرت الهدوء والطمأنينة في عزلة الاغتراب فاغتنمت فرصة «معاهدة اميان» وهجرت فرنسا ، بلاد المآسي والذكريات المؤلمة ، الى الابد .

وتأتي مدام توسو الى انكلترة سنة ١٨٠٢ وتنشيء متحفها الذي خلد اسمها حتى اليوم وسيخلده ابد الدهر ، فتعرض فيه تماثيل من صنعها ومتحفاً صغيراً انشأه خالها في اواخر سني حياته ، اسماه «كهف كبار اللصوص» حولته فيما بعد الى «غرفة الاهوال» وأضافته كجزء متمم الى متحفها هذا ، وقد اصبح اليوم من أشهر متاحف العالم واروعها لما يحتويه من اشهر مشاهير شخصيات العالم ، الاخيار منهم والاشرار ، الاحياء منهم والاموات .

ولكي تكون فكرة عامة عن موجودات هذا المتحف الفني ، اليك ايها القارئ بضع نتف وعينات : نبدأ من الاهم فالمهم فندخل معك القاعة الكبرى في الطابق الاول . فاذا بك في صالة متسعة لها روعة وهيبة ، اضيئت بترتيب فني مدهش وقد استقرت في جوانبها اثنتا عشرة جماعة تؤلف كل منها وحدة مستقلة في جانب بارز ، فتسير من اليمين الى اليسار حسب الارشادات الصامتة فتجابهك الجماعة الاولى وهي لمشاهير الوزراء في تاريخ الانكليز وبينهم بت وتشمبرلن ، وغلادستون ولويد جورج وماكدونالد ودزرائيلي . تتلوهم جماعة الماريشالية يعلوهم

Digitized by Birzeit University Library

هامة او هامتين مونتغمري . وترى بينهم ويفل ، وويلسون ، وغورت ، والانبروك ، ودل . اما الجماعة الثالثة فالعائلة المالكة ، الملك والملكة وبنتاها ، واخوة الملك وزوجاتهم واولادهم حاشا الدوق اوف وندسور والدوقة زوجته فقد انزويا في ركن فني مستقل ، بعيد عن العيون والارصاد . ثم رجال الجو والبحر ، ويتوسط القاعة ، وكانهم في اجتماع هام ، رجال الحكم الحالي ، كليمنت اتلي ووزراءه وكلهم من العمال حتى اللورد ستانسجيت واللورد جوويت . وتعترضك زاوية صغيرة متواضعة تلفت النظر لغرابة عناصرها الثلاثة وهم : نابليون ، والجمال الراقد ، وهو عبارة عن اميرة شابة رائعة الجمال ولها اسطورة غريبة . احبت هذه الاميرة شاباً جميلاً منع من الزواج منها فنامت ولم تفق طيلة مئة سنة وقضى الشاب نحبه طبعاً ، وهنا ، وبعد مئة سنة ، تدخلت عجوز ساحرة كانت تعطف عليهما إبان غرامهما فمصرت في فم الشاب بعض الحشائش أرجعت اليه الحياة فذهب الى مخدع حبيبته فوجدها لا تزال نائمة تتنفس فهم بتقبيلها وما كادت شفتاه تلامس شفتيها حتى رجعت اليها الحياة . وقد لا يجد القارئ أية صعوبة في تخيل الخاتمة . ولا يزال هذا التمثال نائماً يتنفس في المتحف حتى اليوم . والشخص الثالث في هذا الثالوث الغريب هو مـــدام توسو نفسها ، تنظر اليها لترى العقل الجبار والفن الخالد فاذا بك أمام امرأة قروية ساذجة ، ضئيلة ، صغيرة ، تبلغ من العمر الخامسة والثمانين وهي بشكلها هذا وبمنظاريها الغليظين وشالها الرمادي البالي اشبه شيء باحدى عجائز فرنسا القرويات اللواتي يتعاطين بيع الخضروات او الحليب والجبن في حانوت صغير ، وترجع الى صوابك مرة اخرى وتستمر في استعراض الجماعات فترى مشاهير رجال البرلمان في الماضي والحاضر وعلى رأسهم تشرشل . ثم رجال الدين من جون نوكس ولوثر الى هرتز كبير حاخامي الامبراطورية يتوسطهم جميعاً البابا بيوس الثامن عشر . ويلي هذه

Digitized by Birzeit University Library

الجماعة الكهنوتية ، رؤساء الولايات المتحدة ، فرجالات الحكومات المتحدة من امثال ايزنهاور وماك ارثر وبطرس الثاني ، وليوبولد الثالث ، وجورج ملك اليونان وهاكون ملك النروج وستالين ومولوتوف ودي غول وتشان كاي شيك وفرنكو وعلى رأسهم جميعاً وعلى منصة عالية ملك الملوك هيلا سلاسي امبراطور ايثيوبيا والهرر . وبهذا تكون قد أتممت القاعة الكبرى باستعراض خاطف رأيت فيه جميع هذه الشخصيات باحجامها العادية وبالبستها التقليدية وعلاماتها المميزة التي اشتهرت بها في حياتها مثل بيريه مونتغومري وبرنس هيلا سلاسي ، ومونوكل تشمبرلن ، وسيكار تشرشل ، ولحية سمطس ويكاد كل منهم ان يحدثك او يبتسم اليك فتشعر وكأنك تود ان تمد يدك اليه لتصافحه ثم تتذكر حالاً بانه من الشمع الاحمر ينقصه شيء يدعى الحياة .

وتتعدد القاعات والطوابق فالتاريخ طويل والجماعات فيه عديدة والمشاهير منهم كثيرون وقد يملأ المرء المجلدات عنهم ولا يفرغ من وصفهم ولكن لمعاً خاطفة قد تؤدي بالغرض المطلوب في هذا الفصل الضيق من الحديث . فجماعة الأدب تملأ قاعة بأجمعها فمن شكسبير الى كبلنج الى ديكنز الى بيرون الى جورج برنارد شو . وجماعة واضعي الارقام القياسية في مختلف أنواع الرياضة والسباقات وتجد بين جماعة الشخصيات العالمية غاندي ، ولورنس ، بالبسته البدوية الجذابة وكمال اتاتورك ويكاد يلتهمك بنظراته الحادة القاسية . ويرجع اليك صفاء نفسك وهدوءها وتنتشر على وجهك إبتسامة الابتهاج عندما ترى شارلي شابلن بين جماعة الفنانين بين مای وست — نعم مای وست — ومارلين ديتريش . وهناك قاعة خاصة للملوك انكلترا من وليم الفاتح النورماندي الى جورج الخامس .

ونختتم هذه الزيارة المبهجة المروعة بنظرة عابرة ، وانت تغادر القاعات ، تلقيها

Digitized by Birzeit University Library

على جماعة صغيرة في زاوية حقيرة على طرف السلالم . فتدفعك عاطفة حب الاطلاع فتقترب منها قليلاً واذا بوجوه يخيل اليك انك رأيتها من قبل ثم تحدق بها خلال ظلمة مصطنعة واذا بك أمام هتلر وجهاً لوجه والى يمينه موسوليني والى يساره لافال يحيط بهم غورنغ وريبنتروب وهس وغوبلز ورومل وقد ارتدوا ثياباً بسيطة رثة علاها الغبار ، وكانهم وقد مضى عليهم ايام يسيرون على الاقدام بالصحراء ، وقد جردوا من رتبهم واوسمتهم وسيوفهم . فاصبحوا وكانهم اسرى حرب بعد معركة حامية . وقد كتب أمام اسم كل منهم جملة واحدة تشير الى عمله في الحياة او الى طريقة انتهاء حياته . فهتلر مثلاً «احد زعماء المانيا السابقين» ولافال «رئيس حكومة فيشي اعدم يوم ١٣ اوكتوبر سنة ١٩٤٥» ، اما موسوليني فدكتاتور فاشستي اعدمه الوطنيون الايطاليون .

وتهبط السلالم بعد ان تتذكر بان عليك زيارة «غرفة الأهوال» فيعترض طريقك أحد موظفي المتحف بالبسته الرسمية فتسأله عن الطريق المؤدي لهذه الغرفة واذا به تمثال من الشمع ، فتضحك من نفسك وتستمر في السير فاذا بك في «غرفة الاهوال» .

وتسميتها «بالغرفة» مسئلة نسبية لدى مقارنتها بالمتحف نفسه ، والحقيقة انها قاعة كبيرة مستديرة ذات تعاريج ودهاليز . وتختلف عن سائر قاعات المتحف من حيث ان ما تحتويه لا تمثل أشخاصاً منفردين بل تابلوهات متقنة تمثل حوادث تاريخية معينة باشخاصها واجوائها وبالحجم الطبيعي والالوان الطبيعية فكانك عند كل تابلو أمام مسرح تمثل عليه الحوادث ويقوم بتمثيلها الاشخاص نفسهم . ويكثر في هذه الغرفة تماثيل القتلة في حوادث إجرام تاريخية مشهورة ومناظر المشاهير من المسجونين السياسيين كالكونت دى لورج الذي ظل ثلاثين سنة سجين

Digitized by Birzeit University Library

الباستيل والمحاكمات المشهورة ، كما يكثر فيها تابلوهات لحوادث طرق الاعدام التاريخية الشهيرة . ومن اشهر هذه التابلوهات وأروعها ، تابلو يمثل اول من نفذ فيه حكم الاعدام بالكرسي الكهربائي في اميركا ، وآخر يمثل إعدام الملكة ماري ، ملكة اسكوتلندا سنة ١٥٧٨ ، وذلك بفصل رأسها عن جسدها بضربة باطة هائلة ، وقد ركعت الملكة ووضعت رأسها على سطح جذع شجرة مصقول . وترى في التابلو نفس البلطة والجذع اللذين استعملا في هذا الحادث ، كما ترى في تابلو آخر آلة الجليوتين الاصلية التي استعملها الافرنسيون في إعدام مليكهم لويس السادس عشر وهي اول مقصلة في التاريخ ، وتشبه مخرطة الورق التي يستعملها أصحاب المطابع ، ويمثل التابلو هذه المقصلة المخيفة وهي تهوي على رقبة الكونت فيليبس اورزيني الذي حاول اغتيال نابليون الثالث .

وهناك عشرات التابلوهات التي تمثل صوراً تقشعر من هولها الابدان من الوان التعذيب والقتل البطيء في مختلف العصور والازمان من كي وشي وبقر وجر

ومن اغرب الوان القتل البطيء هو القفص الحديدي . والقفص الذي يراه الزائر في هذه الغرفة نسخة مطابقة للاصل عن القفص الاصلي وقد وجد في صقلية في قصر ميلاتسو الذي بناه شارل الخامس . وقد خصص هـــذا القفص لاعدام الكهنة فرجال الدين أجسادهم مقدسة لا يمسها الجلادون . فاذا ما حكم على احدهم بالاعدام وضع داخل احد هذه الاقفاص الحديدية وتدلى وهو في القفص خارج احد جدران القصر الشاهقة وترك بوضع لا تصل اليه يد انسان وهكذا يعاني المسكين آلام الجوع والعطش حتى يدركه الموت فينقذه برحمته من هذه الآلام .

هذه لمحة خاطفة عن هذا المتحف الرائع ويؤمه الزوار يومياً بالآلاف ، ويتخطى عددهم عشرات الآلاف أيام الآحاد والاعياد ويرغبونه اكثر من غيره من المتاحف

Digitized by Birzeit University Library

ففيه يستعرض الانكليز تاريخهم ببضع ساعات . وقلما تجد رجلاً منهم او امرأة لم يزره اكثر من مرة لا سيما الاجيال الفتية . واكثر ما يحب الاطفال فيه «غرفة الاهوال» فيصحبهم الكبار ليحولوا دون رؤيتهم ما لا يجب ان يروه من المناظر المحظورة على الصغار كي لا تزورهم في أحلامهم فتقلقهم في منامهم وعند نهاية الزيارة يرجع الكبار وحدهم لزيارة الغرفة ثانية ومشاهدة ما حظروا مشاهدته على الصغار .

وكما ذكرت في مستهل هذا الفصل ، ان ما يبرر الكتابة عن «مدام توسو» دون عشرات المتاحف في لندن ، ويزيد رغبة الناس في زيارته الفينة بعد الفينة ، هو انه دوماً في دور التطور والانتقال . يتغير ويتبدل مع الايام والحوادث ، مع الحكومات والبرلمانات ، مع الثورات والانقلابات ، مع الحرب والسلم . والايام قلب والدهر خئون ، وتلك الايام نداولها بين الناس ، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

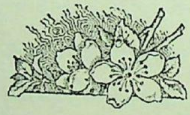

Digitized by Birzeit University Library

٢٠

اليد العاملة بين حربين

كان من اكبر المشاكل القومية التي واجهتها بريطانيا بعيد الحرب العالمية الاولى ، معضلة العمال العاطلين . فقد انتهت تلك الحرب فجأة ، كما انتهت حربنا الحالية ، وكما تنتهي اكثر الحروب . ولم تترك أذيالاً طويلة ومشاكل كثيرة خلفها ، فسرحت الجيوش ورجع الجنود الى بلادهم بالملايين ، وبسرعة لم يكن ينتظرها احد ، حتى ولا لويد جورج نفسه . وهنا نشأت مشكلة العمال العاطلين ، وبلغ عددهم في السنين العجفاء ثلاثة ملايين ، وكانت معضلة اقلقت الحكومات الانكليزية المتتالية طيلة ربع قرن تقريباً . ونفخ هتلر في بوق الحرب ، فلبست الامة الانكليزية ثياب الجندية ، رجالاً ونساء ، شيباً وشباناً ولم يبق في البلاد من العمال عاطلين ولا عاملين سوى ما استبقاه المجهود الحربي .

والقى العم سام قنبلته الذرية على هيروشيما ، فهشمها تهشيما ، وهنا ادرك بن السماء ما تخبئه له السماء فسلم وسلم ما تبقى من العالم من شر الويلات . وانتهت الحرب كذلك بسرعة مفاجئة لم يكن ينتظرها احد حتى ولا تشرشل نفسه . وكانت نهاية لم يعرف التاريخ لها مثيلاً ، فكان هناك انتصار هائل مكتسح ، وكان هناك انكسار مميت مبيد . ومع هذا فان الجيوش لم تسرح ، ولم يرجع الجند الى بلده . إذ ان الحرب اعقبت خلفها عشرات المشاكل والذيول . فالمانيا الكبرى لا تزال تحت الاحتلال العسكري المكثف ، وكذلك ايطاليا وجميع دويلات اوروبا الوسطى والشرقية من حليفات المحور . وفي اليونان وتريستا مشاكل تتطاب بقاء

Digitized by Birzeit University Library

ما ينيف عن الخمسين الف جندي من الانكليز وحدهم . وهناك بلاد المغرب ومنها طرابلس ، ثم مصر وفلسطين ، وايران وحدود ايران ، والهند وبورما والملايو ، وهناك الصين وشنغهاي وجميع اليابان ، في كل هذه البلاد مشاكل منها ما هو مزمن واكثرها من مخلفات الحرب . وحل بعض هذه المشكلات او اكثرها ، يتطلب بقاء عدد لا يستهان به من الجنود تحت السلاح الكامل اكثرهم من الانكليز

اذن هناك عشرات الالوف من الشابات والشبان الانكليز لم يرجعوا الى بلادهم بعد ليتعاطوا أعمالهم العادية في الميادين الاقتصادية والصناعية . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى تبذل بريطانيا اليوم اقصى مجهوداتها في سبيل انعاش ميدانها الاقتصادي وصناعاتها المحلية لتستعيد مكانتها المالية وتسترجع أسواقها العالمية . وقد ازداد الطلب بشكل هائل على اليد العاملة في جميع الاعمال والصناعات . ومن الظاهرات التي يلاحظها المرء اليوم في انكلترا ، نقص اليد العاملة بصورة بارزة . فاينما سار الانسان ، يرى اللوحات والاعلانات في واجهات الحوانيت وعلى ابوابها ، وفي الصحف والمجلات ، وكلها في طلب اليد العاملة في جميع الاعمال من صناعية وكتابية وتجارية وادارية وغيرها . وكان من جراء ذلك ان يجد الزائر في بعض الصناعات عناصر لم يكن يراها من قبل قط ، كما انه في كثير من الحالات ، لا يستطيع الحصول على متطلباته اليومية الا بشق الانفس وبعد انتظار لفترات من الزمن كانت فيما مضى خيالية . وهاك بعض الامثلة :

سائقو السيارات العمومية وماسحو الاحذية تجدهم عادة في السبعين فما فوق من عمرهم المديد . اما خدام الفنادق وخادماته (هذا ان وجدوا بالمرة) فانهم يشكلون دارزاً للعجزة من الطراز الاول . ومواضيع بعض الروايات التمثيلية في اكبر مسارح لندن حول الخدم وازمة الخدم ، وفي كثير من المطاعم والفنادق الصغيرة تضطر للقيام على خدمة نفسك بنفسك . تذهب الى خياط ليخيط لك بدلة اذا توفرت

Digitized by Birzeit University Library

لديك الكوبونات اللازمة والمال فيجيبك «بعد ستة اشهر يا سيدي» فاذا افهمته بانك لا تستطيع انتظار هذه المدة الطويلة ، وانك مضطر لمغادرة البلاد قبل ذلك بزمن طويل ، تكرم وخفض المدة الى اثني عشر اسبوعاً وهو الحد الادنى ، اما الغسيل فمن ثلاثة أسابيع (وهذا اكسبريس ولكنه لا يصل دائماً في الموعد المحدد) الى ستة أسابيع ، وفي الارياف شهران فاكثر . وقد اضطر كاتب هذه السطور الى مغادرة لندن للحاق بباخرته وقد ترك وراءه البسة كثيرة بعضها في الغسيل وبعضها الآخر في التنظيف وكلها كانت ارسلت قبل مدد تتراوح بين الثلاثة أسابيع والشهرين ولم يكن شيء منها جاهزاً ساعة مغادرته . ومن طريف ما حصل مؤخراً ان بعض الانكليز من ربابنة الطائرات التجارية التي تسافر بانتظام بين بريطانيا والشرق الاقصى ، يغسلون ثيابهم في فلسطين ومصر وسيلان واوستراليا ، إذ بهذه الطريقة فقط يتمكنون من الحصول عليها نظيفة بالسرعة المطلوبة .

وسبب ذلك كله ان المغسل الذي كان لدى صاحبه مئة عامل لا يوجد لديه الآن منهم عشرون ، والخياط الذي يعمل له اربعون صانعاً لا يستطيع الحصول الآن على اكثر من عشرة وهلم جرا ودواليك . وكثراً ما سمعت المصدرين يتذمرون من طول فترة الشحن . يعقد الواحد منهم صفقة تجارية كبيرة فيعده مدير العمل بانه سيبذل كل جهد في شحنها خلال سنة .

وقامت هناك مشاكل سياسية محلية من جراء هذا النقص في اليد العاملة . ومن هذه المشاكل تشغيل الاجانب المقيمين في بريطانيا واستيراد غيرهم أيضاً . وقد حضر الى لندن في الاسبوع الاخير من اكتوبر مئة فتاة من بنات دول البلطيق ليعملن في المستشفات الانكليزية . ولا يزال آلاف الاسرى من الالمان يعملون في الحقول وقد طلب الكثيرون منهم التجنس بالجنسية البريطانية وعدم العودة الى بلادهم ، ولا تزال قضيتهم قيد النظر . ومشكلة المشاكل الحالية في هذا المضمار المئة

Digitized by Birzeit University Library

الف بولوني الموجودون في بريطانيا الآن . . وهل يمنحون الجنسية البريطانية ويوزعون على المصانع فيسدون النقص في اليد العاملة وتنتعش الصناعات بالسرعة المطلوبة ، على شريطة اشتراكهم في اية حرب قد تنخرط فيها البلاد في المستقبل ؟ ام إن ترحيلهم وارجاعهم الى بلادهم خير وابقى ، فتخف بذلك ازمة المسكن والمأكل ، وكلتاهما من معضلات الساعة ، وتتحاشى البلاد في المستقبل القريب او البعيد ازمات عمالية وتأثيرات اجتماعية قد تزيد في بلبلة الساطات وصعوبات الاهلين ؟ هذه المشكلة هي موضوع مناقشة حادة في البرلمان الانكليزي اليوم ، وقد كثرت حولها الاراء ، وتعددت وجهات النظر ، وستبدي لنا الأسابيع القليلة المقبلة ، ما يقر عليه القرار في هذه القضية المعقدة .

وبولونيا والبولونيون كانوا ولا يزالون معضلة المعضلات وقضية القضايا منذ فجر التاريخ السياسي في اوروبا . وهنا تحضرني قصة لا بأس من سردها ترفيهاً عن القارئ بعد تلاوة هذا الفصل الجاف ، وان لم يكن لها علاقة مباشرة بموضوع الفصل .

يقال ان مجمعاً علمياً دولياً انتدب بعثة من امم مختلفة من علماء الحيوان لدرس حياة الفيلة في ادغال الهند . ورجع أعضاء البعثة بعد ستة اشهر فقدم العالم الاميركي كتاباً عنوانه «فيل المستقبل والتقدم الصناعي» . وتبعه الانكليزي وقدم مؤلفه وكان عنوانه «اختبارات علمية في صيد الفيلة» . وتقدم الافرنسي بعد ذلك وقدم للمجمع طبعة ممتازة من مؤلفه الرقيق وعنوانه «أحلام الفيل ومشاكله الغرامية» . وهنا القى الالماني أمام المجمع نتيجة أبحاثه وكان كتاباً مؤلفاً من اربعة اجزاء ، وعنوانه «ابحاث تمهيدية لدراسة حياة الفيل» واذا بضجة وبخطى ثقيلة ، واذا بالعالم الروسي يتأبط اثني عشر مجلداً هي ما جادت به القريحة بعنوان «فلسفة الخلق في تكوين الفيل» . وتبعه العالم البولوني يلهث وقد حمل على كتفه مجلداً ضخماً القاه أمام المجمع ففتحه القوم واذا بعنوانه «الفيل ، والقضية البولونية» .

مكتبة جامعة بيرزيت الرئيسية
Digitized by Birzeit University Library

٢١

هنا لندن

هل يمكنك ايها القارئ ان تتصور كتاباً عن باريس لا ذكر فيه لبرج ايفل او السوربون ؟ وهل يعقل ان خطيباً يحدثك عن مصر فلا يذكر النيل او الازهر ؟ اذن فكل حديث عن لندن لا ذكر فيه للاذاعة و «دار الاذاعة» ناقص من حيث المبدأ . ويعتقد كاتب هذه السطور ان مؤسستي الاذاعة والطيران تلعبان وستلعبان دوراً خطيراً في ما بعد عالم الحرب ، في حياتنا اليومية : حاضرها ومستقبلها . ولدى صاحبنا عشرة أسباب مهمة لتخصيص فصل ولو صغير عن هذا الموضوع الخطير ، وعاشر هذه الاسباب انه يتعاطى بنفسه صناعة الاذاعة في حياته العملية اليومية وفي هذا الكفاية .

انشئت هيئة الاذاعة البريطانية سنة ١٩٢٧ بموجب مرسوم ملكي خاص ، واستحصل اولو امرها على الرخصة اللازمة من المراجع المختصة ، واصبحوا بذلك أصحاب الحق الوحيد في تعاطي صناعة الاذاعة في المملكة المتحدة . وكانت مدة الرخصة عشر سنوات قابلة للتجديد عند الطلب . وجددت الرخصة واعيد إصدار المرسوم بعد ان تبنت الحكومة المحطة واحتضنتها . ولكنها ربطت بالمرسوم لائحة داخلية فيها شروط وقيود . ومن ابرز هذه القيود ، ان المحطة لا تستطيع ان تبدي رأيها في المشاكل المحلية والسياسية الداخلية . اي انها ، بلغة الصحافة ، لا حق لها في «كتابة افتتاحية» . وحجة الحكومة انها تقدم على ذلك «لحماية الامة والسلطات

Digitized by Birzeit University Library

القائمة من مؤسسة ذات نفوذ قوي وسلطان عظيم وتأثير شديد في تكوين الرأي العام وتوجيهه» .

ويشرف على ادارة المحطة العامة «مجلس حكام» مختلف العدد يتولى أمر تعيين أعضائه مجلس الوزراء . ويبلغ عددهم الآن السبعة ، وانزل هذا العدد إبان الحرب الى اثنين فقط «لتسهيل سير الامور وسرعة البت فيها» . ويتوخى في هذا التعيين ان يكون «الحكام» من ذوي الكفاءات العمومية الذين يتفهمون المصلحة العامة ، ويستطيعون القيام بخدمتها والسهر عليها ، دون أي اعتبار لعقائدهم السياسية او لونهم الحزبي . وقد بالغت الحكومات المتعاقبة في التقيد بنص هذا التوجيه وغايته . فكانت حكومة المحافظين تعين حكاماً من العمال ، فتقابل حكومة العمال اللباقة بمثلها وتعين حكاماً من المحافظين . والمحطة وحدة مستقلة كل الاستقلال في ادارتها وماليتها وتشكيلاتها ضمن نطاق مرسومها وأنظمتها الخاصة . ولها في ذلك سياسة عامة محكمة . ففي الانتخابات البرلمانية العامة ، مثلا ، تفسح المجال لكل من الاحزاب المتطاحنة ، بما فيها حزب الحكم القائم ، بان يشرح لجمهرة الناخبين برنامجه السياسي الذي يدخل معمعة الانتخابات على أساسه . وتتساوى بذلك الاحزاب من حيث الفترة والوقت والموجة . وكان ما خصص لكل منها في الانتخابات العامة الاخيرة ثلاثين دقيقة في اذاعة المساء الاهلية .

وعندما اعلنت الحرب الاخيرة ، وضعت المحطة تحت تصرف وزارة الاستعلامات لتوجيه الجهود وكان عليها ان تذيع كل ما ترسله اليها تلك الوزارة بامر الوزير . وحدث ان ارسل الوزير في يوم من الايام حديثاً الى المحطة كي تذيعه . فلم يستسغه القائمون على امر الاذاعة واعلنوا الوزير ذلك ، فأصر ، فاذيع الحديث . ولا بد وان يكون الوزير قد شعر بعدها بشيء مما في الجو ، فاذا بكتاب

Digitized by Birzeit University Library

مفتوح منه في جريدة التيمس يعلن فيه بأن الحديث نفسه اذيع بطلب خاص منه شخصياً .

ولمحطة لندن امتيازات لا تتمتع بها اية محطة اخرى في العالم . فبالاضافة الى استقلالها التام في العمل والادارة ، فهي المحتكرة الكبرى وصاحبة الحق الوحيد في تعاطي امور الاذاعة في جميع أنحاء المملكة المتحدة . وهنا السر في قوة نفوذها وتأثيرها . ولها فروع في اكثر المقاطعات تدعى «المحطات الريفية الفرعية» وتعمل كلها تحت إشراف محطة لندن المباشر كاحد أقسامها الرئيسية . ومن المعروف عن هذه المحطة انها لا تذيع الاعلانات ولو دفع أصحابها الملايين بعكس محطات فرنسا والولايات المتحدة .

ويمكنك ان تتحسس مبلغ النفوذ والتأثير اللذين تستطيع هذه المحطة التمتع بهما ، في بلادها على الاقل ، عندما تطلع على بعض الارقام . بلغ عدد رخص الراديو في المملكة المتحدة عشرة ملايين رخصة ، فاذا علمت بان نفوس المملكة اربعون مليوناً وان معدل عدد أفراد العائلة الواحدة اربعة انفس ، ادركت حالا ان هناك جهاز راديو في كل بيت من بيوت الانكليز . ويسدد دخل الرخص ، وهو جنيه للرخصة الواحدة سنوياً ، نفقات المحطة على الاذاعات الاهلية وميزانيتها السنوية عشرة ملايين جنيه استرليني . وتنفق المحطة مليونين من الجنيهات على الاذاعات الخارجية تقدمها الحكومة كهبة من الميزانية العامة .

والمقر الرئيسي للمحطة في العمارة الضخمة التي تعرف باسم « دار الاذاعة » وموقعها في قلب العاصمة . ونظراً لتوسعها الهائل خلال السنوات الاخيرة فقد وضعت الحكومة يدها على اربعين عمارة كبيرة في العاصمة تؤلف الآن مكاتب دار الاذاعة البريطانية . ويبلغ عدد موظفي هيئة الاذاعة البريطانية اثني عشر الفاً هم زبدة ما في

Digitized by Birzeit University Library

البلاد من علم وثقافة وفن . وذلك ثلاثة أضعاف ما كانوا عليه قبل الحرب . وقد بلغ اقصى ما قامت به من الاعمال في يوم واحد انها اذاعت مئة وتسعة واربعين ساعة اذاعة في اربع وعشرين ساعة وبستة واربعين لغة ، وكان ذلك في يوليو سنة ١٩٤٤ . اما ما قامت به المحطة من الخدمات لمجهود الحلفاء الحربي فسيخصص له صفحات عديدة عندما يدون تاريخ هذه الحرب بشكله النهائي القطعي ولكن الذي لا ريب فيه انها عملت الكثير لاضعاف قوة المقاومة المعنوية بين صفوف دول المحور كما انها استمرت طيلة سني الحرب على تغذية الروح المعنوية بين صفوف الحلفاء وتوجيه عناصر المقاومة السرية . ومنذ اسبوع أقامت السلطات في بلجيكا حفلة تكريم شائقة لرجال القسم البلجيكي بدار الاذاعة البريطانية إبان الحرب ، لما ادوه من الخدمات الباهرة في سبيل الاحتفاظ بالروح المعنوية في بلجيكا ، وتقويتها وتغذيتها ، لا سيما بين عناصر المقاومة السرية ، ويصدق هذا على جميع دول الحلفاء التي قامت بها المقاومات السرية تحت الاحتلال المحوري .

ويعمل القسم العربي بدار الاذاعة البريطانية بضاحية «اولدنهام» ، وكان القصر الريفي للورد اولدنهام نفسه ، فاشترته الحكومة . ويقع على بعد ثمانية عشر كيلومتراً من لندن . ويحيط بالقصر من كل جانب أحراش وحدائق غناء تعد من اجمل بقع الريف الانكليزي يذهب لمشاهدتها السواح كما يذهبون لمشاهدة المتاحف والآثار . ومما تمتاز به هذه الجنة الارضية بقعة خاصة أمام القصر تحتوي على عدد هائل من مختلف أشجار العالم وكان علماء الطبيعة يأتون اليها للقيام بدراسات علمية .

وبعد ان ملأ صاحبنا رئتيه من الهواء النقي الشهي ، وعينيه من جمال هذه الطبيعة الخلاب ، في هدوء شامل عجيب ، تنهد تنهدة عميقة وتمتم لنفسه قائلاً : «في

Digitized by Birzeit University Library

مثل هذا الوسط وهذا المحيط تجود القرائح ، ويظهر النبوغ ، ويبرز الانتاج الفكري والفني الرائع ، ويتحسس المرء عبقرية شكسبير ويدرك كنه نبوغه عندما يزور بيته في «ستراتفورد اون افون» ويرى بعينيه اين كتب شكسبير» . وتنهد صاحبنا ثانية ، تنهدة أعمق من الاولى ، عندما تذكر موقع محطات مصر ويافا والقدس وقال أيضاً لنفسه «معذورون رجال هذه المحطات ان هم شحت قرائحهم وجمدت عقولهم وثلمت نفوسهم . فصراخ رجال البورصة المزعج المتواصل في تلك البقعة القاتمة المكتظة من القاهرة يكفي لقتل كل حيوية في الجواميس فكيف في نفوس بني آدم . اما محطة يافا فيحدها شمالاً مقبرة الروم الكاثوليك وغرباً مقبرة المسلمين وشرقاً مقبرة الارمن وجنوباً اكوام متكاثفة من شجر الصبير القبيح علف البعير ومأوى العقارب . وأما محطة القدس فعنوان عمارتها الجغرافي «بين السجن المركزي ومدرسة الطرشان» .

Digitized by Birzeit University Library

٢٢

العودة

وانتهت الرحلة ، ولكل أجل كتاب ، وحان وقت العودة ، العودة الى الوطن ، الوطن الحلو ، ولا شيء أحلى من الوطن في هذا الوجود كما يقول الانكليز . وحزم صاحبنا حقائبه واستقل القطار الى ليفربول ، ومنها الى ظهر السفينة . وودعتنا ليفربول بأشد مما استقبلتنا به من الغيوم القاتمة ، والضباب الكثيف ، والمطر الغزير والبرد الشديد . فغادرناها غير آسفين ، لاننا نغادر مجهولاً ، إذ لم نر وجهها في الجيئة أو في الذهاب . واقلعت بنا الباخرة تمخر عباب اليم ، وسارت بسم الله مجراها ومرسيها . واقبل الليل وحلك الظلام ، فاوينا الى مخادعنا لتأخذ أجسامنا قسطها من الراحة بعد ان دغدغها القطار والسفر فيه .

ونهضنا صباح اليوم التالي ، واذا بنا في عرض المحيط الاطلنطي . فاستنشقنا هواء البحر النقي الصافي ، وتنفسنا الصعداء ، فقد اصبحنا بعيدين عن اليابسة وما فيها من الجفاف ، بعيدين عن التضييقات ، وعن الانتظار في الصفوف ، بعيدين عن القلة في هذا والعدم في ذاك ، بعيدين عن النقط والكوبونات والحصر والتوزيع بعيدين عن الخبز الموحد ومساحيق الاغذية ، بعيدين عن الضحى القاتم والضباب الكثيف ، الاصفر منه والاسود ، والزخات المفاجئة المسببة لشتى الارتباكات ، بعيدين عن برد الليل المتسلل ومجاري الهواء المتسربة التي تحدث الآلام في النحور وفي الخصور ، وفي الانوف وفي الحلقوم . وكنا كلما قطعت بنا الباخرة فرسخاً الى

Digitized by Birzeit University Library

الجنوب ، نقترب من السماء الصافية والشمس الساطعة والهواء النقي . وكان صاحبنا مستنداً على قارب النجاة فوق ظهر الباخرة ، يجيل الطرف في هذا المحيط الذي لا يحده شيء غير الافق المجهول من كل جانب ، وقد اخذته روعة البحر ، وهدوء البحر ، وصفاء البحر ، فاستولى عليه شعور خفي فيه لذة للروح وارتياح في النفس ، وكان شعور الشوق والحنين الى الوطن . وكانت عاطفة لم يشعر بها منذ سنوات عشر لانه لم يغترب طيلتها . حقاً انه سافر كثيراً خلال هذه السنوات الى مصر والشام ولبنان وشرقي الاردن ، ولكنه كان في ذلك ينتقل من وطن الى وطن ، ومن اخوة الى بني عمومة . اما خلال هذه الرحلة ، فكثيراً ما كان يشعر بالغربة ، وبالوحدة والوحشة . وبينا صاحبنا في قبضة هذه الهواجس والعواطف والمشاعر ، واذ به يتمتم لنفسه قائلاً : «اعطني وطني بما فيه وخذ الدنيا وما فيها . اعطني القدس ، وسماء القدس ، وشمس القدس ، ومناخ القدس ، وخذ لندن وما في لندن . اعطني مصر ولبنان ، وخذ باريس ولوزان . اعطني قليلاً من السعتر والزيت والفول المدمس ، وخذ خنازير الدنيا باجمعها . اعطني سيخاً من الكباب وقبالته بعض المتبلات ولك ما في الكون من الروزبيف ومسلوق البطاطس . اعطني فنجان قهوة سكر قليل ، وخذ شاي الساعة الخامسة والسادسة والسابعة وكل ساعات الليل والنهار . اعطني الأهل والخلان ، اعطني الزملاء والاخوان . اعطني «الدفاع» و «فلسطين» وخذ التيمس والديلي ميل . اعطني شوقي ، وخذ شكسبير ، اعطني الشيخ زكريا احمد والسنباطي ، وخذ بيتهوفن وموزار . اعطني ام كلثوم واسمهان وخذ مغنيات اوروبا باجمعهن . اعطني وطني وخذ ما شئت .

Digitized by Birzeit University Library

٢٣

مصر

وترسو بنا الباخرة في ميناء بور سعيد ، ويحملنا منها القطار الى القاهرة وتطأ قدمانا ارض الكنانة ، فتعود بنا الذكريات الى زيارات سابقة متعددة لهذا البلد الطيب ، بلد صلاح الدين والفاروق ، فتمتلئ النفس بهجة واغتباطاً ويقضي صاحبنا بضعة عشر يوماً في مصر متجولاً ههنا وههنا ، فتتحرك فيه عاطفة الميل الى الكتابة وتقع العين على مذكرات حديثة دونت خلال زيارة سابقة . ويتلو صاحبنا هذه المذكرات مرة وثانية ، ويحاول التعديل فيها والتبديل فلا يستطيع ، فمصر الخالدة ، خالدة في كل شيء . وقد رأى في هذه المذكرات صوراً من الحياة في مصر يراها الزائر في كل حين . وهي هي اليوم كما كانت قبل سنوات وكما ستكون بعد سنوات . اتل معه بعض هذه المذكرات كما دونت بالحرف واحكم لنفسك ان كان على خطأ :

«نحن الآن في مصر ، ارض الكنانة ، وادي النيل ، في القاهرة ، الجوهرة المتألقة في صدر افريقيا ، مدينة الاسحار والاسرار ، وبوتقة العجائب والغرائب . يقول كبلنغ ، الشاعر الانكليزي المعلوم ، في قصيدته المشهورة «الشرق شرق ، والغرب غرب ، والتوأمان لن يلتقيا» وتؤلف فرياستارك ، الرحالة المستشرقة المعروفة ، كتاباً تسميه «الشرق غرب» .

هذا شاعر انكليزي هجر بلاده غلاماً يافعاً الى الشرق فقطن الهند ونشأ فيها

Digitized by Birzeit University Library

وعاش ودرس ونثر ونظم ، وهـــذه كاتبة انكليزية استهوتها أعاصير الصحراء ، واجتذبتها شمس الجزيرة ، فهجرت بلدها وتاهت في فيافي قحطان . وهذا وتلك يدعيان التوصل الى أغوار الشرق وفك طلاسمه . وقد ضل صاحبنا وتعصب ، كما بالغت صاحبتنا في التفاؤل واندفعت . والحقيقة التي لا يأتيها الباطل من أمامها ولا من خلفها ، هي ان الشرق شرق والغرب غرب ولـكنهما يلتقيان ويجتمعان ، بل ويجتمعان كثيراً هنا في هذا البلد الطيب . وينتج عن اجتماعهما هذا ، جو وعقلية وتفكير ولغة وحالات لا ترى مثيلاً لها في العالم . هاك على سبيل المثال قائمة المواعيد للغداء في اسبوع واحد : «الاثنين مع ضابط بريطاني كبير يشغل منصباً مدنياً ، الثلاثاء مع شاب اسباني يشتغل في شركة سينمائية افرنسية تعمل لحساب الجيش الاميركي ، الاربعاء استاذ جامعة مصري ، الخميس محرر جريدة اميركية ، الجمعة وزير عراقي ، السبت ديبلوماسي تركي ، الاحد ارتيست في جنينة الحيوانات على ضفاف بركة البط . هذا في النهار اما في الليل فمن «الاسكا» الى «جوهانسبرج» ومن «كازابلانكا» الى «يوكوهاما» . وكفى الله القراء شر التفاصيل .

هذه هي القاهرة ، وقد الف المتقدمون والمتأخرون عنها المجلدات الضخمة بالعشرات بل بالمئات . ونظمت في مديحها ووصفها عيون القصائد التي تملوء الدواوين ، فما عساي ان اكتب عنها ؟ . . ولـكن هل لمثلي ان يمكث فيها بضعة أسابيع دون ان يدون ولو بضع ملاحظات عابرة خاطفة على بعض الظاهرات التي لا يمكن الا وان تلفت نظر سائح «حُشَري» من طرازي ؟ . . طبعاً لا يجوز . اذن ، اليك ايها القارئ بعض ما رأيت وما خبرت ، وهي كما قلت «بعض ملاحظات» ، والبعض القليل جداً من مجموعة هائلة . إذ كيف يمكن الحصر في بلد يعيش الاناسي في بعض أحيائه في العصر الحجري ، بينما يعيش البعض الآخر في أحياء اخرى في القرن الحادي والعشرين .

Digitized by Birzeit University Library

المألوف في بلدان هذا الكون اجمع ان يكون المرء نحيفاً ممشوق القامة ، فاذا سمن احدهم وافرط في السمن ، نعته الآخرون بالسمنة كعاهة او علامة فارقة او شيء شاذ ، كقولهم مثلاً فلان اعرج ، وفلان اقرع ، وفلان محدودب الظهر الى آخر القائمة . . . اما هنا فالامر على عكس ذلك ، إذ المألوف ان يكون المرء مدججاً بطبقات الشحم واللحم ، لا ينقص قطر الكرش المهيب عن أربعة أمتار على الاقل . فاذا ما ضربت النحافة أحدهم أصبح مضرب المثل . أما السبب في كل ذلك ، فسل عنه الحاتي والعجاتي ، وما ينتج عن الاكثار من زيارتهما من تضخم في الكبد ، وتمدد في المعدة ، وتقاص في الحيوية ، وتراكم طبقات الشحم على القلب وغير القلب . . .

وبعد ان يمتلئ بصرك من عناصر الجنس اللطيف من ذوات الوزن الثقيل ، من المهفهفات المعجمجات الواتي يتبخترن على أرصفة ميدان ابراهيم باشا ثم العتبة الخضراء ، فيجبرن نظرك على التأرجح بحركة تشبه رقاص الساعة ، يصيبك من جرائها صداع في الراس ، واضطراب في عضلات العينين ، تجلس هنيهة لتستريح . ثم تنهض فتستمر في السير متخطياً هذين الميدانين الى بقعة بلدية من العاصمة . فاذا ما تجولت في أنحاء باب الخلق والموسكي ، وما بينهما وما حولهما . . لفت نظرك قبل كل شيء واكثر من كل شيء أسماء بعض الشوارع ، لا سيما الازقة والدروب . وقد يكون لهذه الأسماء قصة ، وقد يكون لها مناسبات ، ولكنها طريفة وطريفة جداً . وهاك أيها القارئ اللبيب قائمة صغيرة منها بدون تعليق :

شارع بين النهدين ، شارع الشيخ العبيط ، شارع البهلوان ، شارع مكسر الخشب ، درب ابو لحاف ، درب القرود ، شقة ثعبان ، درب الزير المعلق ، درب ضلع السمكة ، درب المزين ، درب المهابيل ، درب المكسحين ، بير المش ، سكة حمير ، بحر الصبابة ، درب العوالم ، حوش البقر ، درب المقشات .

Digitized by Birzeit University Library

الآن وقد تعرفت الى شوارع البلد ، او بعضها على الاقل ، يمكنك ان تضرب المواعيد مع الاخوان والخلان . اما ان هذه المواعيد تتحقق في اوقاتها او لا تتحقق مطلقاً ، فتلك حكاية لا علاقة لها قط بالمواعيد نفسها ، إذ ان المواعيد هنا اسطورة او خرافة ، كخرافة الغول والعنقاء . وقد قال الكاتب اللبق فكري أباظه في مقال له يعالج فيه ازمة الساعات «وما الحاجة الى الساعات في بلد لا يعرف اهله للمواعيد معنى» . طلبت سيدة المقابلة للبحث في بعض الاعمال ، فسألتها باحترام عن الساعة التي توافقها هي ، فاجابت «الرابعة» تماماً . فانتظرت : اربعة ونصف ، خمسة ، خمسة ونصف ، ستة . . . واذا بها تتبختر على شرفة الفندق ولم يبق للسابعة الا بضع دقائق . فلم اتمالك من إظهار بعض المرارة على هذا التأخر الذي لا مبرر له ، واذا بها تقول بمنتهى الرقة والطهارة «شوف حضرتك ، انا اصلي ما بجيش على المواعيد أبداً ، انما جيت اليوم بس علشان خاطرك» وعندها انحنيت حتى كادت جبهتي تلمس الارض بين قدميها ، للتعبير عن عظيم امتناني وتقديري لما غمرتني به من العطف والاهتمام . وبعد بضعة عشر اختباراً من هذا الطراز ، شطبت على عنصر المواعيد في برنامج حياتي اليومية ، وخليتها على الله ، والله .

ولكنها مصر ، العزيزة على القلوب ، المحببة الى النفوس ، بقضها وقضيضها ، بغثها وسمينها ، بحلوها ومرها . وستظل كذلك على كر السنين وتعاقب الاجيال والاحقاب . ولا يزور صاحبنا مصر مرة الا ويشعر بالسرور ، والمرح والحبور . وكلما فارقها جذبته اليها بشدة فرجع برغبة تطفي على مثيلتها في الزيارة السابقة . وما زارها مرة الا وتذكر انشودة جوزفين بيكر الخالدة التي لم تكد تغردها حتى كانت على لسان كل افرنسي في الكون ، وكان مطلعها «لي في الكون وطنان ، بلدي وباريس» وكان هذا لسان حال صاحبنا في كل حين «لي في بلاد العروبة وطنان ، بلدي والقاهرة» .

Digitized by Birzeit University Library

٢٤

الخاتمة

وقد طلبنا الى «صاحبنا» بعيد عودته ان يوجه كلمة حول موضوع السفر والتجوال الى بني قومه فقال :

ايها العربي !

ذكراً كنت ام انثى ، شيخاً ام يافعاً ، غنياً ام فقيراً ، كبيراً ام صغيراً !

سافر وسافر ثم سافر . سافر الى كل قطر ومكان ، وتعرف الى كل شيء وانسان . ففي السفر الخير كل الخير . في السفر صحة واختبار ، وفي السفر معرفة واعتبار . فيه توسيع افق المدارك ، وفيه مفاتيح السبل والمسالك . والسفر اليوم متيسر للفقير الصغير ، كما هو متيسر للغني الكبير . واذا ما يسر الله لك وسافرت ، فلا تقبع في زاوية من حجرتك وتقول «هذا لا احبه ، وذاك لا افهمه ، وذلك لا استطيع الحصول عليه» بل انزل الى الميدان ، واخرط نفسك في معمعة الحياة . اسئل وتحر وابحث واستفهم عن كل شيء وتعلم كل شيء . فاذا ما تكونت فيك الارادة ، وجدت السبيل ، واذا ما سرت على الدرب وصلت الهدف . فترجع الى بلدك وقومك عضواً نافعاً مفيداً عاملاً منتجاً ، تساعد على رفع مستوى امتك ، وتجعل لها من شخصك دعامة قوية تمكنها من الصمود في وجه شدائد الحياة ومتاعبها اذا جد الجد ؟ او تزيد في سعادتها ورفاهيتها اذا ما ابتسمت لنا الدنيا ذات يوم ،

Digitized by Birzeit University Library

فالخير والفائدة لك ولامتك في الحالتين ، وبهذا تصيب الهدف وتدرك الغاية ، وعليه فلا تقبع في عقر دارك لتأكل وتشرب وتنام ، ولا تغادر بيتك الا لمقر عملك وبالعكس . فقد خلقك الله لتحيا حياة سعيدة مليئة ، وخلق لك هذه الدنيا لتشاهد ما فيها ومن فيها ، ولتتمتع بخيراتها ومسراتها . فانهض وسافر وعش وتمتع قبل ان يدركك الاجل . فان الاسفار بما فيها ، تنشطك وتبهجك ، وتزيد في مناعتك وقوة احتمالك ، وتقوى صحتك ، وتنمي عقلك وتفكيرك ، وتطيل في عمرك ، وتطرد عنك الشيخوخة والهرم ، وتجعلك تعيش سني حياتك على اروع ما يجب ان يعيشها المرء ، تعلم كيف تعيش ولا تدفن نفسك حياً ! فقد صرح فيلسوف العصر وحكيم الدهر برنارد شو الى جهرة من الصحفيين الأجانب عندما ذهبوا الى بيته الريفي لتهنئته بعيد ميلاده التسعين فاجابهم بحريته المعهودة جواباً على سؤال وجهوه اليه حول نشاطه العجيب في شيخوخته المترامية الاطراف :

« ان الناس يموتون لأنهم لا يعرفون كيف يعيشون »

Digitized by Birzeit University Library

الفهرست

صفحة

المقدمة — — — — — — — — ٣—٤

١ في المحطة — — — — — — — ٥—٦

٢ في القطار — — — — — — — ٧—٨

٣ في بور سعيد — — — — — — — ٩—١١

٤ اسكانيا — — — — — — — ١٢—١٤

٥ مالطه — — — — — — — ١٥—١٧

٦ جبل طارق — — — — — — — ١٨—٢٢

٧ الوصول — — — — — — — ٢٣—٢٥

٨ لندن — — — — — — — ٢٦—٢٩

٩ عهد النقط والكوبونات — — — — — ٣٠—٣٤

١٠ التوفير الاجباري — — — — — — ٣٥—٣٦

١١ الاشتراكية الاجتماعية — — — — — ٣٧—٣٨

١٢ الانكليز والاخلاق — — — — — — ٣٩—٤١

١٣ المحتلون — — — — — — — ٤٢—٤٤

مكتبة جامعة بيرزيت الرئيسية

Digitized by Birzeit University Library

صفحة

١٤ الدعاية الصامتة — — — — — — ٤٥—٤٨

١٥ وان يوماً في الريف — — — — — — ٤٩—٥٣

١٦ شكسبير بين الانكليز وعاصفة هوجاء — — ٥٤—٥٥

١٧ روح الجماعة عند الانكليز — — — — — ٥٦—٥٨

١٨ مجلس اللوردات — — — — — — ٥٩—٦٢

١٩ مدام توسو — — — — — — ٦٣—٧١

٢٠ اليد العاملة بين حربين — — — — — ٧٢—٧٥

٢١ هنا لندن — — — — — — ٧٦—٨٠

٢٢ العودة — — — — — — ٨١—٨٢

٢٣ مصر — — — — — — ٨٣—٨٦

٢٤ الخاتمة — — — — — — ٨٧—٨٨

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

الثمن ٢٠٠ مل

Digitized by Birzeit University Library